عرس فلسطيني ...

قصة طويلة

بقلم اديب نخوي

ـ ١ ـ

الليلة عرس فهد البصاوي . ابوه النمر . واصل عائلتهم من جبل البصة ، على مسافة يوم واحد من المشي عن عكا الشريفة ،لا اكثر .

كتبوا كتابه على فاطمة بنت ضيعته ، منذ سنتين . وكانا مخطوبين لبعضهما ، قبل ذلك بسنوات . والليلة الليلة ، بعد ان ظل الفهد يعاند ويكابر ولا يقبل ان يتزوج ، فالليلة يزوجونه في حفلة عرس دقاقة رنانة . يحييها اللاجئون من اهل جبل البصة ، وهم مبسوطون ، بالرقص والغناء والدق على جميع انواع آلات الطرب . فيارب اتمم فرحة اللاجئين بعرس ابنهم فهد ، يا رب .

وقد قرروا ان يجعلوا من العرس ، حفلة عالمية . لا مثيل لها بين جميع حفلات الاعراس في جميع انواع مخيمات اللاجئين والمشردين ايا كانت موجودة في سائر عموم انحاء الاقطار العربية .

قالوا : لان الفهد قد استاذن .

وتفاهموا فيما بينهم برموز لاجئيه . عربية لكنها فلسطينية. كانها تدق من البصة ،وتصلهم الى المخيم بصورة لاسلكية .

وفرحوا .

تفاهموا فيما بينهم اولا ، على ان يفرحوا .

وبعد ذلك ، فرحوا .

فكيف لا يفرحون ، والفهد قد استاذن بطريقة بصاوية . بعد ان ظل يرفض الزواج على الصورة القديمة المخيمية .؟!

فالليلة عرس فهد . الليلة .

لكن اللاجئين اهله واحبابه ، لم ينتظروا قدوم المساء . بل ابتداوا الفرح منذ الصبح . حين عاد ابو فهد من البلد المجاور للمخيم ، وقال:

ـ اتتني مخابرة ، والليلة يعود فهد الينا ، لنزوجه .

ساله اللاجئون وقد التموا حوله في ساحة المخيم : ـ كيف يا ابا فهد . فهل انه استاذن ؟

وابو الفهد ظل يبتسم ، وهو يقول : ـ فكيف يقبل فهد ان يتزوج اذن ؟ ان لم يكن قد استاذن .

فصاحوا من الفرح ، صوتا واحدا ، هز المخيم : ـ هيه . لعيون الله .

وهتفوا من عندهم ، وهم في الساحة ،على النسوان ،ان يزغردن الفهد ، فانه استاذن . يا سلام !

تشتهي نسوة اللاجئين ، من زمان ، ان يزغردن من القلب . ولو مرة واحدة في العمر . فلما سمعن ان الفهد قد استاذن . فانهن اخذن يزغردن :في اول الامر وهن يبكين . زغرودات قصيرة عصبية منفعلة . كانها بمثل النفس المضطرب من الهواء ، اذ يستنشقه الغريق حينما يطفو على وجه الماء وهو يتخبط . ثم انهن ، وقد اخذن يتعانقن على ابواب البيوت ،فتمتزج دموعهن على الخدود ،عدن وزغردن زغرودة طويلة ... عميقة .. كانها لتعوض الف الف زغرودة اخرى،مرت بهن الليالي فيذل هذا المخيم، وهي في صدورهن ، محبوسة .

ثم طارت فحطت عند اللاجئين ، في ساحة المخيم ، فجاة ،اسراب العصافير .

فمن بيوت الصفيح التعيسة في قلب المخيم ، ممتدة الى الساحة ازقة وحارات . صغيرة .. متلاصقة .. كانها متآخية في بؤس الغربة الطويلة ، خرج الاطفال ، يركضون .. مندهشين . فما الفرح!. لا يعرفونه . وما الزغاريد !. لا يسمعون بها . والزهر في خدودهم اصفر . وقد ذبل ، ثم يبس . والشمس في عيونهم ، كانها يحجبها غيم مظلم ، فلا تشع من وراء الاجفان ،الا باهتة ، خابية ، كئيبة .

ركض الاطفال من هناك ، حفاة . فما الركض ؟! لا يركضون الا مذعورين ، امام السيل . كلما داهم المخيم في ليالي الشتاء . فعلى يديه ، تعلموا الركض ، منذ سنين .

ركضوا اول الامر وهم لا يفهمون . فلما سمعوا انه عرس . ظلوا لا يفهمون . لكن ما ان سمعوا أنه فهد . ويعود الليلة الى المخيم. يا الله ! حتى اخذوا يصفقون بايديهم الصغيرة ويهتفون : نحب فهد. فمن من اطفال المخيم ، لا يعشق الفهد ؟ حبيب الكبار والصغار ، فهد.

وابو الفهد قاعد في الساحة . وقد التم الجميع حوله .ويبرم شاربيه الابيضين المفتولين . شيخ الشباب في المخيم ،ابو فهد .معتدل القامة . لكن فهدا اطول منه بشبرين او بثلاثة . وحلو ابو فهد. رغم الخمسين . وعذاب عشرين سنة اخيرة ، تعادل كل واحدة منها، ثقل خمسين سنة من الشيخوخة في عمر البشر . لكن حين يحكي عن فهد ، فكانها قد تلاشت منها المرارة والهموم والاحزان .

وابو الفهد ، قاعد في الساحة لا يحكي . وانما تحكي عيناه:

ـ ان مرحبا يا لاجئين في هذا المخيم .فهل رايتم كيف ابني ؟ فهكذا يكون ابن الواحد ، ان كان من ظهره . والا فلا يكون الولد .

يحلو النظر الى عيني ابي فهد . وهما تتالقان ، كلما حكى عن فهد . فان لم يكن يحكي، وتتالقان . فلا بد انه يفكر بفهد.

لكن ، كم يحلو النظر ، ياالله ، الى عيني فهد ، كلما حكى عن فاطمة ، يا الله !! فكان اليهما ، يقفز فورا ،كل بحر البصة ، وكل الوادي : واسعين ، عميقين ، ممتلئين بالشوق والحنان . وشبابيك

البصاويين من فوقهما ، على قمة الجبل ، مطلة . مفتوحة للفجر : تستقبل عناق الموج وشعاع الشمس وعطر الزهر وخضرة الزيتون . فكم يحلو التسلق من منخفض هذا المخيم الى جبين فهد . ليطل الواحد من هناك ، وكأنه فوق قمة الجبل ، على كل ذلك الكون البصاوي الحلو ، في اعماق عينيه .

ياالله .!

كم يحلو النظر الى عيني فهد ، وهو يحكي عن فاطمة : انه لا يتزوج بها ، الا بعد ان يذهب ، ويستأذن ..!

طق عقل اللاجئين ، من الفرح، ياسلام !! هناك في المخيم .عندما عاد ابو الفهد ، من البلدة المجاورة للمخيم ، وقال : ـ اتتنيمخابرة. فلسطينيون ومحرومون من الفرح .

وقد اتتهم مناسبة ، ليفرحوا بها . فكيف يتركونها ؟! دون ان يملأوا الدنيا من حولهم : دقا ورقصا وطربا ، طول الليل ؟!

لا يمكن .

ـ ٢ ـ

العريس : فهد . وابوه : النمر . بصاويان بالكنية .

واصل عائلتهم من ضيعة في جبل البصة . على مسافة يوم واحد من المشي عن عكا الشريفة ، لا اكثر . حيث لا بد هناك : من ان يرضى والد العروس ، بعريس ابنته . فتلك عادة راسخة ، رسوخ الجبل ، من قديم الزمان .

الاصل ، في الاصل : ان يتزوج البصاوي في البصة . فان تزوج، في مخيم اللاجئين ، فلا اقل من ان يكون ذلك ، حسب الاصول والعادات المعروفة في الجبل . واهمها : ان يستأذن . فاذن والد العروس ، دليل على رضاه . فبذلك ، تكون العروس قد خرجت منعند اهلها ، وهي مرتاحة البال ، وسعيدة . فكيف يتزوج فهد بفاطمة ، دون ان يستأذن ..؟!

مستحيل .

قال ، انه ، وان كان لا يتذكر من الجبل . سوى : البحر . ما كان اكبره !! يا الله ، ما كان اوسعه ..! أظل انظر اليه ، وهو تحتنا ،فلا ينتهي ، مهما نظرت ! فهل هذا البحر كله لنا ؟ لاولاد ضيعتنا . فعندما نكبر ، نقدر ان ننزل اليه ، لنصطاد كل ما فيه من السمك ؟ وسوى الوادي : ما كان احلى الوادي ، تحت الجبل ، ممتلىء بالمرج الاخضر ، واولاد ضيعتنا الكبار يسرحون في قلبه بقطعان الغنم !! فمتى اسرح بغنماتنا فيه يا ابي ، واشاهد الحملان وهي تولد ، فاحملها بين ذراعي مساء عندما اعود بامهاتها الى الضيعة، متى؟

قال : انه ، وان كان لا يعرف عن الجبل ، سوى ما يتذكره من صورة البحر والوادي ، لكنه ، تعلم من ابيه ، وان في مخيم اللاجئين: كيف الجبل . ففي الجبل : لا يخطف الفتى عروسه خطفا . الا اذا كان ابن حرام . اما الشريف ، ابن الحلال ، فيستأذن . ان كان يحب عروسه حقيقة ، ويريد لها السعادة ، يستأذن . والا : يكون ابن حرام . لا يريد من البنت سوى : ان تسلمه نفسها .

والا ، فكيف يستطيع اهله ، في ليلة عرسه ، ان يشعلوا عند قدوم المساء ، من ضيعتهم ، في راس الجبل ، نارا تضيء الكون بالفرحوالمسرة: ان هلموا يا صيادين في عرض بحر البصة ، فالخير عندنا كثير . ولا تهتموا بالسمك . ويا رعيان وديان البصة : ان عندنا ،هذه الليلة ، مبيتكم ، انتم والغنم وما ولدته من حملان . فللضيف ، ليلة عرس احد ابنائنا ، كل ما جنيناه ، من خيرات الجبل ، طيلة هذا العام . وان تزحف الى ضيعتهم ، الجموع من اهالي القرى من كل ناحية من انحاء الجبل ، وهم يدقون الطبول طول الطريق، ويضربون الفشك: لعيون العريس واهله . والكرم عربي . والليل بطوله : رقص وغناء وطرب . والفرحة : لا تهنؤا العريس اذ يصبح الليلة زوجا . بل الفرح كله ، يا رب الفرح ، لابي العريس . فتعالوا وعانقوه ، من الخدود والشوارب ، اذ انه يصبح ، بعد شهور معدودة ، جدا .

فالليلة ، عرس فهد .

وما دام انه قد استأذن ، فالبصاويون يتوافدون من جميع انحاء المخيم ، آتين الى ابي العريس ، أبي فهد . يتعانقون : مسنين كثيرا، في مظهر الوجوه المطبوعة بزمان العذاب الطويل ، واحزانه الثقيلة، رغم ان الاعمار ليست كبيرة . يتعانقون ، كانهم ، رغم انهم يلتقون كل صباح ، في هذا المخيم ، كانهم الليلة ، يلتقون بعد فراقالسنين الطويلة ، من جديد ، في احضان جبل البصة . في اعماق زمان حلو .. بعيد .. كانه موغل في القدم . لكنه عابق ، رغم ذلك ، برائحة الزيتون ، تنشر من قمة الجبل ، الى شواطىء البحر ، عندالسفوح، غبطة البشر بالحياة والمحبة والسلام .

ظلوا يحكون . والدموع تفسل الخدود المتفضنة ، وتنساب الى شعر الشوارب الشائب . والايدي تدق على الاكتاف ، ببقية من قوة، لكن بكثير من الشوق والحنان .

قالوا :

ـ كنا ننزل الى عكا ، لتشتري النسوان ، بمناسبة عرس احد اولاد ضيعتنا ، الهدايا للعروس . مسافة يوم واحد من المشي عنضيعتنا في الجبل ، لا اكثر .

ثم اعتذروا لابي فهد . وايديهم خالية ، هذا اليوم ،من الهدايا:

ـ من اين نشتريها .؟ وقد اصبحنا على مسافة عشرين سنة من المشي عن عكا الشريفة ، واكثر .

ـ ٣ ـ

كانوا قد نصبوا في ساحة المخيم ، تختا .

وعلى التخت كراسي عتيقة من الخيزران .

وعلى كراسي الخيزران ، موسيقيون ومطرب .

وأمامهم ، ميكروفون . يجربه صاحبه الذي يركبه ، فيخشخش.

وعلى امتداد عرض الساحة ، امام التخت ، رفعوا عمودين من الخشب . يتوسطهما في منتصف المسافة تماما ، عمود طويل ... طويل ... يرتفع فوقهما بمقدار مترين ، واكثر .

فبين العمودين ، مدوا شريطا طويلا .

وفي الشريط الطويل ، علقوا ثلاثا وعشرين لمبة كهرباء صغيرة.

قالوا :

ـ بعدد سنوات عمر فهد . فكاننا الليلة ، نحتفل ايضا ، بعيد ميلاده . وعلى العمود المرتفع . نصبوا العلم .

وعلقوا ، فوق العلم ، في راس العمود ، لمبة كهرباء كبيرة ..كبيرة.

وتحته ، خارطة فلسطين . مرسومة على لوحة كبيرة : انها عربية .

قالوا :

ـ فراية اللاجئين ، تخفق اليوم ، في ظل الشمس ، فوق ارض فلسطين العربية ، بعد ان ظلت مطوية ، عشرين سنة من الزمان .

ثم صفقوا طويلا . وصاحوا فرحين : ـ هيه . لعيون الله .

واخونا النمر البصاوي ، نبه :

لا يشعل احد في كل المخيم، نورا ،هذه الليلة ، الا عند الضرورة.

قال : ـ يلزمنا كل ضوء الكهرباء ،هذه الليلة ، في الساحة .

واللاجئون نفذوا اوامر ابي الفهد . ولم يشعلوا النور . لتتالق كل طاقة الكهرباء المخصصة للمخيم ، في اللمبات المنصوبة فيالساحة. وليطلع صوت المطرب وجوقته ، في الميكروفون ، قويا ، وهو يعبر الاشرطة الممتدة من وراء التخت الى مكبرات الصوت المنشورة في مختلف انحاء المخيم .

يا سلام !

فلما وصل تيار الكهرباء الى المخيم ، مع آذانالمغرب. وقفز النور الى اللمبات المعلقة في الساحة ،دفعة واحدة ، دون ان يمر باي

لمبة مشتعلة في كل المخيم . يا عيني !! فكان شمس فلسطين كلها سقطت في الساحة

صفق اللاجئون ، مرة اخرى ، فرحين ، وصاحوا : ـ هيه ..هيه..

قط لم ياتهم ، نور الكهرباء الى المخيم ، من يوم غابت عن عيونهم، شمس فلسطين ، الا .. باهتا .. ضعيفا . كئيبا .

فكيف لما ابتدأ الغناء والدق على آلات الطرب ! من فوق التخت، ويد المطرب على خده . يصيح على الليل من وراء الميكروفون : ياليل. وعلى العين : يا عين . والمكبرات تردد في كل انحاء المخيم : ياليل .. يا عين .

فاللاجئون ، وقد احتشدوا قدام التخت في ساحة المخيم ، ردوا صوتا واحدا : آه .

ان غنى المطرب : يا ليل . ردوا عليه : آه .

وان غنى : يا عين . ردوا عليه ايضا : آه .

فالمطرب لحق باللاجئين ، واختصر . وبدون ليل ولا عين ، اخذ يغني : آه .

فالصوت عند ذلك ، طلع من فمه الى الميكروفون ، فالى المكبرات : آه .. آه .

وظل يدور في سماء المخيم كله : الفان وثلاثمئة آه . ليسمع جميع اللاجئين ، وهم بمقدار الفين وثلاثمئة ، جميع الآهات . ليسمع كل واحد منهم ، الآه التي تخصه .

يا سلام !

تركيب اخينا نمر البصاوي . شيخ الشباب في كل المخيم .والليلة عرس ابنه فهد . فمن كان يستطيع ان يرتب الامور ، بهذا الشكل، سواه !؟

ـ ٤ ـ

الليلة عرس فهد البصاوي على فاطمة بنت ضيعته . والبصاويون مجتمعون عند ابيه النمر ، في ساحة المخيم ، يسلمون عليه ،ويهنئونه، ويمزحون معه : ان الفهد بدل من عادات جبل البصة . ويضحكون : آخ . فغدا لا ترضى بناتنا ان يتزوجن ،الا بعد ان يذهب العرسان ويستاذنوا . وقد تطلب زوجاتنا منا كذلك ، ان نستاذن . فان لم نفعل، يقع الطلاق ، ونصبح في آخر العمر ، ارامل .!

لان البصاويين يعرفون عادات جبل البصة . فان قلبها الفهد، وجعل العريس يستاذن من والد العروس ، بدلا من ان تستاذن العروس بنفسها من والدها ،في الخروج من بيته الى بيت عريسها ، فان العادة بالاصل ، ان العروس تستاذن .

ـ يا فهد ، ان كنت تريد العادة البصاوية ، فكيف ان العريس يستاذن ؟! عيب .

لكن الفهد قال : ـ كيف تستطيع فاطمة الوصول لعند ابيها ؟ لكن .. انا .. استطيع الوصول . نغير الطريقة من مخيمية الى بصاوية : انه لا بد للزواج من اذن . ومن بصاوية عتيقة الى بصاوية جديدة : ان العريس هو الذي يستاذن ، نيابة عن عروسه .

ـ يا فهد ، لا لزوم لذلك . فلا بد ان الرجل موفق . فانفاطمة تحبك . وليس احسن منك عريسا لها ، بين كل شباب جبل البصة .

لكن الفهد عنيد . اقسم براس فاطمة : انه لا يتزوج، الا اذا ذهب واخبر والدها ، وعاد بعلامة من عنده ، تدل على انه موافق .

وفاطمة ، وكلته .

لما رات انه مصر على الذهاب الى ابيها . فانها وكلته ، ليستاذنه، نيابة عنها .

وعمة فاطمة ، اوصته ، وهي تبوسه من خديه ، شاهدة على الوكالة :

ـ يا ابني ، يا فهد ، ما دمت ذاهبا لعند اخي ، ابي فاطمة ، وانت تعلم ، انه مشغول كثيرا ،فانظر ،عندما تصل : هل انه ما زال يطخهم ببارودته العثملية ؟ وفشكها ، يا حسرتي ،في الصرة المفتوحة امامه، قليل ، ومسترطب . تطق واحدة من بين عشرة . فتصيب . واسمع يا فهد : هل انها كلما طقت واصابت .. هل انه ما زال يصيح : لعيون الله . وهو فرحان . والدنيا كلها وراءه ، لا تساوي ان يلتفت اليها ، ليلقي عليها ، نظرة . لا تساوي ان يسأل احدا عما يجري فيها، الا لام فاطمة :

ـ يا ام فاطمة . كي بقي في الصرة من الفشك ؟.

يا فهد بن نمر البصاوي ...

فهكذا ظلت عمة فاطمة ، توصي الفهد :

ـ ان تصل يا فهد لعند اخي، زين شباب الجبل ، فسلم لي عليه. قل له : اختك ام علي تسلم عليك ومشتاقة اليك . وانظر . فان لم يكن قد بقي ، في الصرة ، يا فهد ، شيء من الفشك ، فهات لي ، يا فهد يا ابن النمر ، ان كنت تقدر ، من عند اخي ، علامة .

ـ ٥ ـ

الليلة عرس فهد البصاوي . مساء الخميس فهي ليلة الجمعة . واللاجئون من بصاويين وغيرهم من الفلسطينيين ، اجتمعوا في ساحة المخيم . جلسوا على الارض ، قدام التخت . فما ان صاح المطرب : آه . حتى لحقوه : بالفين وثلاثمئة آه :

ـ يا منشد الآهات . يا طيب . نحن ادرى منك بالآهات . فاسمع آآآه .. هذه : اه فلسطينية . فهل انك سمعت مثلها بين جميع آهات البشر في عموم انحاء العالم ؟

والمطرب تائر .

وغصبا عنه ، انهمرت من عينيه الدموع :

ـ يا فلسطينيون ، علموني : كيف تسحبون الآهات .. وهكذا .. من عند اظافر اقدامكم ! علموني ، كيف تسحبون هذه الآهات ؟

ـ آه . يا مطرب . بالفطرة ودون صنعة . بعشرين سنة من العذاب: بذل المخيم ، بعد عز البصة . بفلسطين كلها : بكروم زيتونها وبيارات برتقالها .بشمسها وجبالها . وقد اصبحت : خيمة . ثلاثة اذرع بالطول وذراعان بالعرض . بمساحة القبر ، يا منشد الآهات ، لكنه ظاهر على وجه الارض . فكيف تتعلم ؟ بالاطفال يسافرون على امواج السيل في ليالي الشتاء التعيسة ، وهم يودعونك ، فلا يستنجدون بل يسلمون من احضان الموت عليك ، ملوحين باكفهم الصغيرة : انوداعا يا بابا . ثم يذهبون فلا يعودون . بالفطرة يا منشد ، ودون صنعة ، تأتينا الآهات . بعشرين سنة مشيناها بعيدا عن البصة وعن عكا الشريفة . فكيف تتعلمها ، يا مطرب ، بالصنعة ، في ساعة من الزمن، في ليلة عرس ، وانت تضع يدك على خدك .! بفاطمة عروس فهد . فهل تدري ماذا حدث لها مع امها يا مطرب ؟ وانت تغني لها الليلة في حفلة زفافها . هل تدري ؟.. كيف تقول فاطمة : آه . هل تدري؟ فكيف تستطيع ان تتعلم يا مطرب ، دون ان يحدث لك ما حدث لها مع امها ، كيف تستطيع ان تتعلم آهها ، كيف ؟!

وكان الموسيقيون ،فوق التخت ، يدقون على آلاتهم .

اول الامر ، دقوا جميعا ، مع المطرب وهو يغني ، بالعود والقانون والدربكة والناي . ولكنهم بعد ذلك ، توقفوا عن الدق . بينما ظل من بينهم ، صاحب الناي وحده ، يناوه . فنسوا انهم موسيقيون يحيون حفلة العرس ، واخذوا يصغون ويتناوهون . نظروا الى ساحة المخيم، حيث كان يحتشد اللاجئون ، ووقفوا عن الدق . لانهم شاهدوا الالفين والثلاثمئة ، وقد توجهوا بآذانهم الى الناي وحده . يا سلام ..!! فكروا : يا سلام ..! يظهر ان الفلسطينيين لا يحبون من آلات الطرب ، سوى الناي . فكلما ناوه الناي منفردا ، قام نمر البصاوي ابو الفهد ، وهتف : ـ يا عيني . ياصاحب الناي . اعد .

وكلما نهض البصاوي ، فكانه الامام ، قام ليصلي . يقوم جميع اللاجئين وراءه ويميلون .. هكذا .. على الطرفين .. ويصيحون :

ـ ياصاحب الناي . يا حبيب الفلسطينيين . أعد .

فالمطرب اخذ الدور عند ذلك . حزينا . وقد رق صوته . وصفا جو المخيم الا من لوعاته تصاحب آهات الناي . وضع يده على خده، ومال برأسه كالعاشق المتيم ، وغنى : انه غريب معذب ومشتاق للاحباب. ومن طول فراقه عنهم : سهران ، لا يعرف طعم النوم ، كل الليل .

آخ ...

فكأن اللاجئين ، لم يفهموا معنى كلامه ، لاول وهلة .

سكتوا .. هكذا .. لمدة لحظة من الزمان .. بدون : يا عيني. أو أعد . أو .. آه . وكأنهم كانوا يسألون فيها انفسهم ، ومستغربين :

ـ هل في هذا العالم كله ، غريب ، سوانا .. !! ومشتاق مثلنا لاحبابه !! ومن طول الفراق ، لا يعرف طعم النوم ، مقدار عشرين سنة من الليل !! يا مطرب الاعراس ، يا طيب . هل في هذا العالم كله، غريب سوانا ومشتاق مثلنا لاحبابه !!

ثم انفجروا ، فجأة ، كما ينفجر صوت الرعد من أعلى السماء :

ـ اعد . أعد . عن الغريب المشتاق ، يا مطرب . مئة مرة،اعد.

والبصاوي النمر ،وقف بينهم.شيخ الشباب : ابو فهد ـ واصولي. ولوح بمنديله الابيض فوق رأسه ، يحيي به المطرب نيابة عن المستمعين: وهتف :

ـ اعد يا غريب . لنرى كم انت مشتاق لاحبابك . اعد .

والمطرب اعاد . والناي تاوه . والموسيقيون وقفوا عن العزف . واخذوا يميلون على المطرب تارة ، وعلى زميلهم صاحب الناي ، تارة اخرى ، ويهزونهما ، من اكتافهما، هاتفين بهما : ان يعيدا .والنمر البصاوي ، اخرج بطة العرق من عبه ، ونتر منها نترتين . وقال لمن حوله : ـ يغفرالله لي . فهذه آخر ليلة ، اشرب فيها العرق .

ثم قال : وكأنه يخاطب نفسه :

ـ هذه ليلة عرس ابني فهد . وهو ابني الوحيد . فهل انني افرح بعرسه ، كل ليلة ؟!

يغفر الله لي ، شرب العرق ، هذه الليلة .

فأجابه اللاجئون من حوله :

ـ يغفر لك يا نمر بصاوي . فلا تزعل .

ـ ٦ ـ

الليلة عرس فهد البصاوي . مساء الخميس ، فهي ليلة الجمعة. اللهم صلّ على صاحب الجمعة .

ان اهل العريس من المسنين ، ولحاهم بيضاء كالثلج ، ظلوا ،كما هي العادات في البصة ، يستقبلون الضيوف من المدعوين من اهالي القرى المجاورة للمخيم . فاولئك هم من غير الفلسطينيين ، ويعتذرون منهم : ان لا يؤاخذوهم، اذا هم قصروا في واجب ضيافتهم .

قالوا :

ـ هنا ليست بيوتنا . بل مخيم اللاجئين . واصل عائلتنا من جبل البصة ، في شمال فلسطين . فهل يعرف احد منكم ، ايها الضيوف الاكارم ، جبل البصة ، على طريق عكا الشريفة . يا الله !! ما اعلاه..! تصعد لعندنا ، فترى البحر كله ، تحت عينيك . ازرق .. ازرق ..من عند صيدا وصور الى شواطىء عكا . هناك . في أعلى ذلك الجبل، كانت بيوتنا أين تمر وهي في طريقها الى البحر ؟ من شبابيك بيوتنا تسطع كالشمس من الشرق،فمتى تمر .فلو اغلفناها الحجبنا الشمس عن المراكب في قلب البحر،فانها على صفحة الموج،عند ذلك، تضيع. ينزل الغيم ، من عند الرب ، فمن اين يحمل مطره ، رائحة الزيتون وشذى زهر البرتقال ؟ من كرومنا على قمة الجبل ، ومن بياراتنا ، يتزود غيم الرب، بالعطر ،وهو ذاهب ليسقي الارض والبشر . هناك ، على ابواب ضيعتنا قعدنا نطخهم بالفشك . والبواريد عثملية ، وعتيقة . وعددها عشر . وفي ايدي كل مئة رجل منا ، واحدة من العشرة . والفشك قليل ومسترطب . تطق واحدة ، من بين كل عشر فشكات . فلا بد أن تصيب صهيونيا صاعدا ليغزو الجبل . نفد الفشك يا ضيوف، من الصرر . فقلنا : ننزل لنتزود بالفشك ، ثم نعود . وابو فاطمة ،قال:

ـ عندي .. في صرتي .. كم بقي يا ام فاطمة ، في صرتي ،كم فشكة ؟

قالت ام فاطمة ـ عشر . قال : ـ لا بد ان اصيب بواحدة منها .فانزلوا، وانا هنا . اعد الفشكات حتى اصل الى التي تطق . إعيون فاطمة الصغيرة ، بكر اولادي . فالى اين تذهب ، من بيتي ، فاطمة ،وعمرها سنة واحدة ؟

هناك ، كانت بيوتنا ، يا ضيوف .

وابو فاطمة ،على ابواب ضيعتنا ، يطخهم بالفشك من بارودته العثملية . مشغول ، ولا تساوي عنده الدنيا كلها ،ان يلتفت اليها، الا ليسأل :

ـ كم بقي في الصرة،من الفشك ، يا أم فاطمة ؟

ـ ٧ ـ

لان ضيوفا من الشباب ، يسكنون قريبا من مخيم اللاجئين ،وهم من ابناء القرى المنتشرة حول المخيم ، كانوا ايضا مدعوين الى عرس فهد . فاولئك هم الذين كانوا بعمر فهد وعمر عروسه فاطمة . واشتركوا مع اولاد المخيم ، كلما اتى هؤلاء ، ايام الحصاد ، يلعبون في ساحات البيادر فوق اكوام الحنطة والشعير ، فريقين : فريق صهيوني يأسر بنتا عربية ، وفريق عربي يهجم عليهم ، ليخلصها من الاسر . وظلوا ياكلون من فهد ، القتلة بعد القتلة ، ويقعون اسرى في ايدي الصهاينة ، حتى تعلموا اصول اللعبة . فبايعوا فهدا على زعامة الفريق العربي : يهجمون وراءه على الفريق الصهيوني ،ويأسرون افراده . لكن ، دون ان يقتربوا من الاسيرة العربية فاطمة ،او يمسوها ولو باطراف اصابعهم .

ان لم تكن فاطمة هي الاسيرة ، فاذهبوا وخلصوها . ولا يتدخل فهد في القتال ، مباشرة . بل يضع الخطة : يقسم الافراد الى مجموعات وينصب الكمائن وراء اكوام البيادر . ويعطي اشارة الهجوم . ثم يوجه المعركة .

لكن اذا كانت فاطمة هي الاسيرة ، فمن كان يتجاسر ان يخلصها من يد الفريق الصهيوني ، سوى فهد ؟. لا أحد . فهكذا .. اصول اللعبة . لا يجوز ان يخلصها سوى فهد . والا ، فمن يغلط من بين افراد الفريق العربي ، ويحاول ان يخلصها ، فانه يقع فورا في اسر الصهاينة . يقع اولا في الاسر ، لان فاطمة ، وهو يهجم على الصهاينة ليسحبها من يدها ، من بين صفوفهم ، واللطمات تنهال على رأسه وظهره ، فان فاطمة لا تعطيه يدها ، فياسره الصهاينة فورا . وبعدذلك ياكل قتلة من فهد . فلا احد يمد يده لفاطمة، سوى فهد . وهي لا تمد يدها ، وتقبل ان يخلصها من اسر الصهاينة،سوى فهد .

ويقول اللاجئون في المخيم : انها كلما رأت الفهد ، اصبحت من شدة فرحها ، كأنها الساعة قد خرجت من قيود الاسر . وانه، كلما رآها ، وهو اشجع ولد في كل المخيم ، اصبح كأنه قد وقع في الاسر فورا ، بدون قتال .

ـ ٨ ـ

الليلة عرس فاطمة ،، على ابن ضيعتها ، فهد .

وفي بيت عمتها ،في ناحية بعيدة عن ساحة المخيم : غرفتان من جدران القرميد ، والسقف صفيح من التوتياء ، تحتفل النسوة البصاويات ، بعد ان البسن العروس ثوب الزفاف ، وهن يزغردن بالهناهين ، فهنهونة لعروسهن : ما احلاها . متمنيات على الله : ان يهنيها بصباها .. لي‌لي‌لي ليش . وهنهونة لعريسها الاسمر : حلو وصغير . يا عيني عليه . لي‌لي‌لي ليش . وهنهونة ، وهن يخرجن من بيت عمتها الى الطريق ، تحية لاهل العروس : ان يا اهل العروس ياكرام.

من فهد واهله لكم الف سلام . ليليلي ليش .

لكن ، اين هي العروس ؟!

على باب بيت عمة فاطمة ، وهن خارجات في طريقهن الى بيت العريس ، ضاعت من بين النسوان ، العروس .

ـ فاطمة . فاطمة .

آخ .. هربت من بين النسوان ،بمقدار لمح البصر ، العروس،وهي تركض؟!وقد وكلت عريسها ان يستأذن لها اباها . ولا بد انه قد استأذن والا لما قبل ان يعود الليلة ، ليتزوج . فالى اين تركض فاطمة ؟!باتجاه الشمال .! وكأنها غير راضية ان تمضي الى بيت عريسها لتتزوج هناك ؟ فهل انها زعلانة ؟ لان اباها لا يحضر عرسها ، الليلة . لتقبل يده ، وتخرج من بيته بالعز ، وهي فرحانة ؟ طيب . فما العمل ؟! وابو فاطمة مشغول ببارودته العثملية . يحتضنها بين كفيه ، ولا يبرح مكانه من عند باب الضيعة . ولو خيروه بين كل مباهج الدنيا ،وبين فشكة واحدة غير مسترطبة ، يلتقطها من الصرة المفتوحة امامه ، فما ان يعمر بها بارودته ويطلقها ، حتى تطق فتروي الغل ، لما اختار سوى تلك الفشكة .! فما العمل ؟

الى ان هتفت واحدة من العجائز البصاويات لعمة فاطمة ، وعينها ترصد اتجاه الشمال ،حيث كانت تركض فاطمة ، في عتمة الليل :

ـ يا اختي : ان لم تكن فاطمة تقدر ان تخرج الى بيت عريسها،من عند ابيها ، فلا تزعلي . وبيتك ياعمة كأنه بيت ابيها . لكن ،الا تظنين ، انها تفضل ان تخرج الى بيت عريسها ، من عند امها ؟ الا تظنين والا فلماذا ذهبت باتجاه الشمال . ماذا في شمال المخيم ،غيرانها ذاهبة لعند امها ؟

فردت البصاويات المجتمعات عند باب عمة فاطمة ، بنفس واحد :

ـ نعم . تخرج من عند امها ..

ـ نعم . لا بد انها تخرج من عند امها الليلة ، ياعمة ، لا بد . فكيف نسينا ؟! ...

ثم انهن فكرن بأسى ، وكل واحدة منهن كأنها تحكي لنفسها :

ـ نعم ، فلا بد لفاطمة من ان تذهب لعند امها في ليلة عرسها. لا بد . لتسألها : ان تفك اصابعها عن ذيل ثوبها ، حيث لا يستطيع ان يخلصه من بين اصابعها ، ان لم تكن تريد ان تفلته ، عشرة من الرجال الاقوياء . لتخبرها : ان الليلة ، ياامه ، عرسي . من فهد ابن ضيعتنا يحبني واحبه . وقد وكلته ان يذهب الى ابي، ليخبره، ويستأذنه ، نيابة عني . فمن شدة ما يحبني ، فانه ذهب . وهو عائد هذه الليلة بالاذن من عند ابي . فهل انك يا امي ، كذلك ، تأذنين ؟ فتفكين اصابعك عن ذيل ثوبي ، لاعرف انك راضية عن زواجي به . فاذهب اليه ،وانا فرحانة . هل انك يا امي ، تأذنين ؟

هكذا ظلت العجائز البصاويات ، يفكرن ، وهن يلحقن بفاطمة، باتجاه الشمال . وامامهن بناتهن الصبايا ، مستعجلات قدامهن . ثم انهن، وهن يتابعن المشي ، على وهنهن ، على مهلهن ، اخذن يحكين لبعضهن البعض الاخر ، كل واحدة تحكي لمن تمشي جنبها ، حكاية قديمة يعرفها جميعهن ، فكأن في ذلك الحديث ، والاستماع اليه ، شجنا يشبه آهات المطرب ، وهو يضع يده على خده ، ويغني ،في ساحة المخيم ، عن اللوعات ، والغربة وفراق الاحباب : حكاية ليلة ان داهمتنا السيول، يا اختي ،على حين غرة ، ونحن نيام تحت الخيام . فهل تذكرين ؟ منذ خمس عشرة سنة .. في هذا المخيم . وكان عمر فاطمة خمس سنين: طوفانا من المطر ، كأنها بمقدار بحر البصة . كأنه اكثر من غضب الله، فاجترفت امامها الخيام . واختطفت من بين ايدينا ، اطفالنا الصغار. فهل تذكرين ؟

ـ ٩ ـ

الله وحده اعلم باسم ذلك النوع من التعاسة التي اتت لتخيم حيث كان يخيم اللاجئون مساء الامس . فلا هي مشتقة من الحزن على من يموت من الاحباء . ولا يشبهها التفجع اذ تحل المصائب ،ولا الالم، ولا العذاب . ولا يعبر عنها البكاء ولا العويل .

الله اعلم باسم ذلك الصمت الكئيب العميق المخيف الذي ظل اللاجئون يستقبلون به ، افواج اطفالهم الموتى المحمولين الى ساحة المخيم ، من حيث كانت السيول قد القت بهم ، ليلة الامس.الله اعلم.

لانهم كانوا ، آباء وأمهات ، قد قعدوا في ساحة المخيم ، حلقات.. حلقات ، مطرقي الرؤوس فوق اجساد اطفالهم وقد احتضنوهم الى الصدور او مددوهم على الركب ، وينظرون اليهم مستغربين ، وكأنهم لا يصدقون انهم ميتون . ويحكون معهم ، لكن .. همسا رقيقا ... فتارة وهم يسألونهم مستفسرين :

ـ كيف قضيتم ليلة السفر ، أمس ، يا اولاد ؟

وتارة ، معاتبين :

ـ فلماذا انكم ذهبتم وحدكم ؟ ولم تأخذونا يا اولاد معكم . ونحن نحب السفر .. مثلكم . لماذا ؟!

يا سلام !!

كأنه لم يكن هناك ، في ساحة المخيم ، ذلك الصباح، بشر يحسون بالالم !!

فالله اعلم . بماذا كان يحس اللاجئون ، هناك ، في ذلك الصباح. اذ ليس للبشر قدرة ، على وصفه .

الله اعلم ، ان كان الرجال العشرة الذين عادوا في ذلك الصباح الكئيب ، بأم فاطمة الى المخيم، بقوة عشرة رجال حقا ، وهم يحاولون ان يفكوا اصابع ام فاطمة عن ذيل ثوب ابنتها الصغيرة . ام ان الرجال العشرة ، كانوا في ذلك الصباح اثقال المطر ، قد فقدوا قوة الرجال، فاصبحوا وهم عشرة ، لا يساوون قوة اصابع الكف الواحدة في يد امرأة واحدة . الله اعلم .

ان الرجال العشرة شهدوا امام جمع اللاجئين واللاجئات ، وهم عائدون الى ساحة المخيم بام فاطمة ،وهي ما زالت ممسكة بثوب ابنتها : انهم لم يفهموا لماذا ..؟! فكيف ..؟! كيف لا يستطيع عشرة رجال ان يفكوا اصابع يد امرأة مطبقة ؟! .. كيف .. ؟! فالله،وحده، اعلم بذلك .

وهو اعلم منهم بكل شيء :

باسم ذلك النوع من التعاسة التي اتت وخيمت في ساحة المخيم.

بسر صمت اللاجئين الكئيب المخيف الذي لا يشجعه الحزن ولا العذاب ، ولا يعبر عن اسبابه البكاء ولا العويل .

الله اعلم : بما كان يكمن في قبضة ام فاطمة من قوة . فانه قادر ان ينزع من أكف عشرة رجال ، كل قوتهم ، ليودعها ، سرا له ،يعادل قوة الف رجل ، في قبضة امرأة .

لا بد ان اللاجئين كانوا يفكرون في امور كثيرة ، في ظل ذلك الصباح المعتم ، وهم لا يعلمون عنها ، الا القليل .. القليل :

فهل ان الرب زعلان منهم ، وغضبان ... بمقدار ما ارسل وراءهم، ليلة البارحة ، من سيول ؟! فما اشد غضبه ، اذا كان الامر كذلك .!! لانهم نزحوا عن ارضه وتركوها للصهاينة . فما اشد غضبه منهم لذلك !

نعم . لا بد ان اللاجئين سألوا انفسهم ، وهم يفكرون ،كل هذا السؤال ،حين خطر لهم ،وهم يلتمون حول ام فاطمة وهي ممددة في ساحة المخيم وممسكة بيدها ثوب ابنتها الصغيرة ، محاولين ان يفهموا سر هذه المسألة .حين خطر لهم :

ان الرب مسرور، ولا بد ، من زوج هذه المرأة ، ام فاطمة .مسرور منه كثيرا . ما دام ان ابا فاطمة ،ظل على ابواب الضيعة ،في اعلى جبل البصة ، يرمي الصهاينة بالفشك من بارودته العثملية العتيقة . نعم. لا بد ان الرب مسرور منه كثيرا . فكيف لا يعوضه عن كل الفشك المسترطب الذي لا يطق من بارودته على ابواب الضيعة، قدرة ..يودعها، ليلة الطوفان ، في قبضة زوجته ام فاطمة ، فاذا بها تفوق قوة عشرة

ـ التتمة على الصفحة ٦٦ ـ

عـرس فلسطيني

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٦ ـ

من الرجال مجتمعين . كيف ؟! فلا بـد ان ذلك هو تفسير هذا الامـر العجيـب والله اعلـم .

ـ ١٠ ـ

لانهم ، وهم يجمعون الاطفال الفرقى من قلب احد الوديان القريبـة من المخيم ، حيث كان السيل ، منحدراً من الجبال والمرتفعات ، قـد اختطفهم من بين ايدي آبائهم وامهاتهم ، وساقهم فوق امواجه الـى ان استقـر بهـم في عمق الوادي ، وحيث كانت مياه الامطار الغزيرة ، قد شكلت ، وهي تصب هناك ، طيلة ليلة الامس ، بحيرة للموت ، تسبـح على صفحتها الموحلة ، اجسادهم الصغيرة الواهنة .

لان واحداً من الباحثين عن الجثث ، هناك ، ويدعى فرحان الاسمر، شاهـد فجـاة ، وهو رافع رأسه من اعماق الوادي ، يخاطب اللـه متسائلا : ان كانت تلـك البحار من العذاب التي يصبها فـوق رؤوس اللاجئين .. تخصهم .. فما ذنب اطفالهم ؟.. لانه شاهد فجاة ، شيئا ما يتحرك في غبش الفجر عند ارتفاع الصخور المطلـة على الوادي مـن ناحيـة المخيم ، من احد الاماكـن التي كـان السيل قد فتح فيها، طيلة ليلة البارحـة ، طريق الموت لاطفال اللاجئين . فمـن هناك ،لم يكن احد من النازليـن الى الوادي مع الفجر ، قـد سلك الطريق ، نظـرا لصعوبـة هبوط المنحدر من ذلك المكان ، حيث ينهض جرف حاد مرتفع من الصخور فوق كتف الوادي ، كأنه الحائط المستقيم، فلا يستطيع احد ان يسلكـه معبرا للنزول الـى المنخفض ، الا بمنتهى الصعوبة .

ففرك فرحان الاسمر عينيه وهو ينظر :

ـ هل انه كـان يشاهـد مناما !

لان مـا كان يتحرك عند اعلى الصخور ، على ارتفاع خمسين مترا واكثر ، لم يكـن يتحرك فوق تلـك الصخور .بل، انه .. كان ..!ـ يا لطيف ..؟ مـاذا ارى ؟!

وهمّ الرجل بان يصيح برفاقه اللاجئين الذين كانوا يخوضون مياه الوادي حتى صدورهم . لكنه امسك عن الصياح .

قال لنفسه ،وهو يفرك عينيه مرة اخرى :

ـ سيقولون عني : مجنون . او على الاقل : مذعور مما حدث لنـا في الليل . وان الذعر يجعلني ارى هذه المناظر الغريبة .

ثم امعن النظر ، بمنتهى التاني، الى مـا كـان قد شاهده فـي اعلـى المنحـدر .

قال لنفسـه :

ـ انظر بهدوء. وعلى مهلي .

ثم انه ، بهدوء، وعلى مهله ، نظر . فشاهد ان الشيء الذي يراه، مطـلا عليه مـن فوق .. ـ آخ .. يالطف رب السماوات .! شاهده .. انه .. معلق في الهواء .. هكذا .. ويتارجح .. هكذا .. في فـراغ الهاويـة.. !!

وعند ذلك ، فانه : بهدوء ، وعلى مهله ،طق عقله .

اخذ يصيح بصوت محموم ، وقد اخفى عينيه بكفيه ، حتىلا يتابع النظـر الى هناك ، غصبـا عنـه :

ـ يا بصاويون الحقوني . يا اهـل النخوة والمروءة ، الحقوني . دخيل الله ان تلحقـوا . أخوكم فرحان الاسمر ، طق عقله .

فاخذ اللاجئون الذين كانـوا قريبين منه ، يسبحون نحوه مسرعين، وهم يصيحـون :

ـ ماذا جرى لـك يا فرحان الاسمر ؟!

وهـو لا يرد بسوى : الحقوني .

فلمـا وصلوا لعنده ، واحاطوا به . وسالوه . اخبرهم، وكفاه مـا زالتـا تغطيـان عينيه ، بانه قـد جن .

ـ العمق يضرب عيونك يا فرحان الاسمر ، وانت اشجع شبـاب المخيم ، هل الوقت وقت ان تجن . ارفع يديك عن عينيك لنرى ، هل جرى لعينيك شيء ؟

قال لهم ، وهو يرفع يديه عن عينيه ، لكن لينظر بهما الى الاسفل:

ـ واحدة من اثنتين : اما اني قـد جننت ويرحم الله عقلـك يا فرحـان الاسمر بعـد ان طار من رأسك . واما ان تنظروا وتقولوا لي، ان ما تشاهدونه هناك ، واشار باصبعه الى المكـان في اعلى المنحدر لكن دون ان يرفع اليـه عينيه ،

ـ انه .. مثلما اشاهده انـا . فانظروا وقولوا . دخيل اللـه والانبياء ان تقولـوا لـي :هل تشاهدون شيئـا معلقـا في الهـواء .. هنـاك ؟

فنظر الرجال لحظة ، ثم قالـوا له فورا ، وقد اذهلهم كذلك ، ما يـرون :

ـ يا فرحان الاسمر . لم تجن . نعم . نشاهد هناك شيئا معلقـا فـي الهـواء . ثم ركضـوا .

صعدوا الى الشيء المعلق في الهواء ، زحفا علـى جدار المنحدر ، وهم تسعـة . ومعهم فرحـان الاسمر ،يجر نفسه وهو يرتجف ،فاصبحوا عشرة . تسلقوا منحدر الوادي ، تمزق أيديهم وركبهم ، اسنان الصخور، فـلا يبالون .. الى فوق .. الى فوق .. وكلما اقتربوا ، كـان المَنظـر يزداد وضوحا امامهم .. الى ان اخذ يطرق مسامعهم صوت واهـن ضعيف آت من الاعلى ، ما لبثوا ان ادركوا انه لطفل وهو يبكي بحرقـة والم فاستعجلوا .

وفرحان الاسمر ، شدّ من عزيمته ، وتسلق من المؤخرة واخـذ يسبقهم . وهـو شاخص بعينيه ، كلمـا تسلق مترا من الصخور، يرفع وجهه الى الاعلى وينظر .. الى ان رأى ، على ارتفاع عشرة امتار فقط، اليد الممدودة من فوق اعلى الصخور .. وفيها .. كل ذلك الشيء المعلق الذي كـان يتارجح في الهواء . فصاح من الذعر : ـ ياربي .. !!وانكفا على الارض . حفر بوجهه هذه المرة ، في تراب المنحدر ، وهو يمرغه على الحصى ، بيـن صخرتين ، مكـان شبر يتسع ليخفي فيه عينيه فقط . ولم يفكر ،وهو من اشجع شباب البصاويين ، بان يرفع وجهه مرة اخرى، خلال تلـك الدقيقة الرهيبة من الزمن ، الى الاعلى ، لينظر .

ـ ١١ ـ

كذلك حكى الرجال العشرة بعد ذلك ، طويـلا . في سهـرات ليالـي المخيم الشتويـة الباردة التعيسة . وهم منتشرون في الخيـام العتيقـة . او في بركات الخشب والقرميـد التي تم انشاؤها لهم، بعد ليلة الطوفان ، تحت سقوف الصفيح . فكل واحـد منهم ، يحكـي لعشريـن او ثلاثين : كيف انـهم جمدوا في اماكنهم ، عند اعلى المنحدر، حينمـا راوا تلـك اليـد الممدودة مـن بين الصخور فوق هاوية الوادي، وهي ممسكة بالجسم الصغير المعلق في الفضاء ، ولم يتجاسروا علـى الاقتـراب ، فـورا .

لكـن من كان من بين العشرة ، اكثر صدقا من الآخرين ، فانه ظل يحكي للاجئين :

ـ اننا خفنا . فمـن من البشر كـان يمكـن ان يكون معنا، فيرى .. فجاة ..يدا ممدودة من فوق الصخور ، تمسك بذلك الجسم الصغير وهو معلق فوق هاويـة الوادي .. ولا حس ولا انس .. سوى صـوت بكـاء طفل مرير .. تقشعر لـه الابدان ، ولا يخاف ..! فهل انها كانت يـدا بشرية ، ام يدا ممدودة من عندالله .؟ اننا ،اول الامر ، خفنـا. تظاهرنا باننـا نهتم بفرحان الاسمر : لماذا انـه خائف !! بينما كنـا خائفين، اكثر منه . ظللنـا مقدار دقيقـة او دقيقتين ونحن نهتم بفرحان الاسمر ، الى ان ارتفع صوت نشيج الطفل الذي كنـا قد نسيناه في تلك اللحظات .. لكن .. حادا هذه المرة .. واكثر عنفا . وكأنه يناديـنا مستنجـدا . فكرنـا : لا بد ان الطفل قد رآنا . فتشجعنا .. لكن لنصيح:

على مـن يوجد هناك ،في اعلى الصخور ، من يوجد هناك ؟

فلم يجبنا سوى صوت الطفل ،وهو يبكي ، بحدة اكثر فاكثر .

فاخذنا نتقدم متسلقين الى الاعلى .. بحذر: خطوة .. اثنتين .. ثلاثا .. كان لا بد من عشر خطوات .. خطونا كـلا منهـا ، مجتمعين ، ونحـن نجر معنـا فرحان الاسمر ، او نجر في الحقيقة ، بعضنا البعض الاخر .. حتى وصلنـا الى مـا قبل الخطوة الاخيرة . وحينذاك ، لـم نكـن قـد رأينـا بعد ، سوى الذراع الممدودة في الهواء والشيء المعلق بهـا .. وهو يتأرجح . لكننا كنـا قـد ادركنا ،ان الشيء المعلـق بالذراع ،هناك ، كـان جسم طفل صغير .فعنه كـان يصدر كل البكاء الذي كنـا نسمعه . فلما امعنا النظر الى ذلك الجسم الصغير المتارجح في فضـاء الهاوية ، حينمـا وقع وجهه تحت ابصارنا .. عرفنا .. فورا .. فصحنا صيحـة واحدة : فاطمة .. !! ثم قفزنا كالمجانين ، فوق المسافـة الاخيرة الباقية بيننا وبين مـا وراء الصخور المطلة علـى الوادي . وعند ذلك ، راينـا وراء احدى تلـك الصخور كـل شـيء. فجمدنا . كل منـا في مكانه ، لا يتحرك ، لمقدار لحظـة .ثم انهرنا جميعا على الارض، ، دفعة واحدة .. نمرغ وجوهنا في التراب ..في الطين .. في الطين .. فماذا كانقدبقي فينا ، سوى شعر رؤوسنا لم يجلله، في ذلك الصباح ، طين الارض ..؟ . فاذا بنا وبحركة واحدة ..نقترف من الارض بايدينا كتلا من الطين .. ونجلل بها رؤوسنا .. هـكذا : عارا وذلا . وننزل بها الى الخدود لنلطم .. هكذا .. غضبا وقهرا . لم يبق عندك يا رب للاجئين ، غير طين الارض . فاعطنـا منـه ايضا .. لناكل . هات .. وهيا .. يا رجال . تحت سماوات الله المكفهرة بالغضب . هيا . نشهده الى الارض : نفرس افواهنا فيهـا ونلمؤهـا من الطيـن ..

وفرحان الاسمر ، رفع راسه،وبصق من فمه الطين ، وكفر .

فجاة .. فاذا به ،قد كفـر .

كنا نهم ان نقول له : ـ لا تكفر . يا فرحان .

لكن .. كانه كان قد سمع ما كنا نريد ان نقوله ، فلم يرد . وظل يكفر . ثم قفز واقفـا على قدميه .. فالى ما وراء الصخـور ، بقفزة ثانية عنيفة . فهناك ، كانت ام فاطمة ، مكبة على وجهها ، متكومة على بعضها البعض . وذراعها ممدودة بين صخرتين ، تمسك بجسم ابنتهـا فاطمة الصغيرة-وهو معلق في فراغ الهاوية ، بينمـا يدها الاخرى الطليقة مغروسة في تراب الارض .. بعمق .. بعمق .. فلا يظهر منهـا سوى اعلى الرسغ ، وهو يقطر بالدم .

ـ ١٢ ـ

ثم ان عشرين يدا امتدت دفعة واحدة ، نحـو فاطمة الصغيرة .الى حيث كانت معلقـة في فراغ الهاوية ، وتتارجح. مكبين بوجوهنا علـى شفـا الجرف الحاد من اعلى المنحدر ،بينمـا اذرعنـا .. باكفهـا .. باصابعها .. تبحث بلهفـة ،عن قطعـة اخرى من ثوب فاطمة نمسـك بها ، لنسحبهـا الينا . ومن منا لم يصل بيده ليمسك بفاطمة ، بعد ان كـان قد سبقه غيره الى المكان الذي تستطيع يده ، منه ، ان تصـل لفاطمة ، فانه مد يده كذلك ، وامسك بالايدي الاخرى المسكة بفاطمة . حبل من الايدي ، لعشرة رجال ، يمسكون ببعضهم البعض ، من اجـل ان يمسكـوا في النهايـة .. بفاطمـة .

ـ امسكوا بفاطمة قبل ان .. ت ... في ال ..

والذي هتف من بيننا بذلك ، وهومندفع ، عاد فورا وخجل مـن نفسه . فتلعثم ، ولم يكمل نسقط ، بل قفز الـى في ال .. بتأثيـر اندفاع الكلام من فمه ، بينمـا كان يغالب نفسه، ليبتلع باقي العبارة . لاننا كنـا قد تحولنـا اليه جميعا ، ونحن نتلقف فاطمة بأيدينا ، وركزنا عليه ، نظرة واحدة ، معاتبة قاسية . فابتلع الكلمـات الاخيرة من عبارته كمـا كان يريد ان يقولها ، واخذ يتأنىء ببعض باقي الحروف ،ويتعلثم.

فكيف يا اخانـا . كيف ؟

ـ امسكوا بفاطمـة قبل ان ... ت .. في .. ال ...

اي

ـ قبل ان تسقط في الوادي .

اليس هذا ما تريد ان تقول ؟

اجابنا اخونا ، بعينيه ، وهو خجلان :

ـ نعم .

وعلقت بـه .

وظلت به العبارة ، علقانة . وقد حفظ له اللاجئون ، ذلك ، لقبا ، ينادونـه بـه . فأينمـا ذهب واينما جاء ، فكانه ذاهب الى الوادي ، ليسقط فيـه .

فيا قبل ان تسقط في الوادي . يا اخانا الطيب. يا مسكين .

الا ترى : كيف انهـا ليست يد امراة . الا ترى ؟!.

الا ترى : انها ليست ابنتها ، تلك التي تمسك بها ، بيدها،الاترى؟!

الا ترى : انهـا كل المشردين . انهـا كل اللاجئيـن . وايديهم ممتدة فوق ظلام الهاوية . الا ترى .؟! بكل مـا يفجره الظلم والطغيان من قوة ، في ايدي المظلومين والمعذبين ، الا ترى ؟ ويمسكون بها مـن هناك .. لاولادهم .. بكل فلسطين .. لئلا تسقط مرة اخيرة ، في سحيق اعماق الهاويـة ؟ الا ترى ؟!

فكيف . يا قبل ان تسقط في الوادي :

كيف ان فاطمة ، من يد امها ، تسقط ؟!

ـ ١٣ ـ

يحلو للعشرة ومنهم ابو فهد .. فكم يحلو لهم ان يشهدوا ،ويظلوا يشهدون . امام اللاجئين فكانهم امام محكمة . عن غدر السيل ، وكانه المتهم . وعن ام فاطمة ، كانهـا المغدورة .

ظلوا يعقدون الجلسات ويشهدون ، عبر خمسة عشر يومـا مـن الزمـان . يستنطقون المغدورة . ماذا تقول المغدورة . قالـوا : ـ تقول: بواريدنـا عشر . ولكل مئـة رجل منهـا واحدة . والفشك قليـل ومسترطب . لا تطق الواحدة الا مـن بين عشر . والضيعة في جبـل البصة سقطت . وقبلهـا سقط على ابواب الضيعة ابو فاطمة . فمـاذا بقي لي من كل ضيعتنا سوى فاطمة . فكيف اتركها من يدي تسقط ؟

ويستنطقون المتهم . ماذا تقول ايها السيل الغادر :

قالوا : ـ يقول السيل : الحق عليها . فلمـاذا انها لم تتـرك لي فاطمة اختطفهـا من بين يديهـا واسوقها الى الوادي ! فسقتهما معا. كتلة واحدة . تقع بهـا على الارض ، لكن ، تقوم . وترتد عليّ لترجـع. آخ . فليس لهـا مـن هم سوى ان ترجع . فكانهـا الى ضيعتهم تريد ان ترجـع . الطمها . والرعد يقصف في السماء . آخ . فتنفخ فـي وجهي . ولا تخاف . تنحداني . يا سلام ! فكيف اتركها ؟. فسقتهما معا . لم اترك معي حجرا الا ورميتهما به . آخ . فتعطيني ظهرها . او راسهـا . او كتفها . قط لا تكشف امامي، وانا ارميها ، صدرها ،حيث تضم اليه ابنتها . القيت بهـا ارضا ، ورميت . قلت اصيب هذه المرة. واذا ساعداهـا كانهمـا جدران حول البنت . فلا يصيبهـا حجري. لا يصيب ! فبقوة الموج، قذفتهـا .. قدامي .. الى الوادي .. الـى الوادي .. الى صخور ما فوق المنحدر . هيا .. ولم يبق الا ضربـة اخيرة . هاتيها . فهنـاك وقعت وراء الصخور . هاتي البنت يا امراة. والقيت فوقهـا بثقلي . وسحبت منها البنت . اصبحت البنت اخيـرا بيدي ، وتحت رحمتي . هيا .. دفعـة اخيرة .. الىّ الوادي .فاقرب مكـان اليّ ، القي بالبنت منه الى الوادي ، كـان فجوة بين صخرتين وقعت امامهمـا الامراة . هيا .. الى الوادي . فهناك .. آخ .. !! واذا بيد المراة تمسك بذيل ثوب البنت، وانا اسحبها . فجاة انشبت اصابعهـا بذيل ثوب البنت !! يا سلام ! واذا بكتفيها ، وهي مكبة على وجهها ، قد التصق كل كتف بصخرة . فاصبحت ،هي والصخرتان: ثلاث صخرات . اصب موجي فوق المتوسطـة منهن . لكنها كانت قـد

اصبحت هي والصخرتان ، صخرة واحدة . قلت القي بثقلي فوق يدها، فقط ،حيث كانت تتدلى منها البنت فوق الهاوية ، علني استطيع اقتلاعها من بين اصابعها . ، لا فائدة . كأنها نبتت هناك ، فجأة ، شجرة ، عمق جذرها في الارض مسافة لم افهمها . لا يستطيع موجي اقتلاع الاشجار ذات الجذور العميقة باللاجئين . لا يستطيع . فهل تقولوا لي : من اين نبتت يد المغدورة ، تتحداني طيلة ليلة الطوفان، فلا استطيع ان اقتلع جذرها من الارض ، ولا حتى ان اسقط من غصنها الثمرة ! هل تقولون لي يا لاجئون ، عن المسافة ؟ مسافة ما بين يد ام فاطمة وما بين جذورها ،كم تبلغ ؟ لاعرف لماذا انني رغم كل جبروتي، لم استطع ان اقتلعها من وراء الصخور والقي بها الى الوادي غ، ولاان اسقط من غصنها ، الشجرة .

قال اللاجئون العشرة :- فنحن شهود . وقد رأينا . فيا ايها المتهم، هي مسافة ما بين ذل المخيم وعز ضيعتنا في جبل البصة . فماذا تقول ، عما فعلته بالمغدورة ؟

قال اللاجئون : يقول السيل : ضيعتكم يا لاجئون ، سقطت . فما دامت ام فاطمة تريد ان ترجع بابنتها الى ضيعتكم .فيجب عليها ان تدفع الثمن .

— ١٤ —

وبعد ذلك ، يستنطقون بعضهم البعض الآخر .

يحلو لهم ان يستنطقوا ، والجلسات منعقدة في سهرات ليالي المخيم الطويلة .. الطويلة ، عبر خمسة عشر عاما من الزمان .

- فما هي شهادتكم ، يا شهود ، يا عشرة ؟

فكم يحلو لهم ان يشهدوا ، ومنهم ابو فهد : ان يد ام فاطمة،لا تنفتح عن ذيل ثوب ابنتها . آخ ..! كيف تنفتح ؟ تسقط بعد ذلك فاطمة الى قاع الوادي . فهي مطبقة على ذيل ثوب ابنتها ، ولا تنفتح.

يشهد ابو فهد : انهم اول الامر لم ينتبهوا في ذلك الصباح الى ان يد ام فاطمة كانت لا تزال تمسك بذيل ثوب ابنتها .

يقول : انا قلت لفرحان الاسمر ، انا احمل فاطمة ، وانت يافرحان، احمل امها . وهيا نعود مسرعين الى المخيم ، لعل سيارات الاسعاف تكون قد وصلت الى هناك .

قال : لاننا لاحظنا ان ام فاطمة كانت لا تزال تتنفس، لكن بصعوبة، رغم انها فاقدة وعيها ، فكأنها كانت في النزع الاخير .

عبثا كنا قد نادينا عليها ، قبل ذلك : يا ام فاطمة .

فقد كان كل ما فيها محطما ، من عند رجليها الى قمة راسها، ومغموسا بالدم والوحل .

فمرة واحدة ، فتحت عينيها . مرة واحدة ، فقط .

فعندما انحنيت ، انا ، على الارض ، وحملت فاطمة الى كتفي ونهضت بها ، وانا اقول لفرحان الاسمر ان يحمل امها . آخ ..! فكأن احدا من الارض كان يمسك بفاطمة ويجرها لعنده .

التفت والقيت نظرة . يا رب السماء ؟! فاذا يد ام فاطمة ، وقد اخذت ترتفع وهي لا تزال تمسك بذيل ثوب ابنتها . ومع يدها .يالله..! اذا بالنصف العلوي لجسم ام فاطمة ، يرتفع مع يدها المسكة بذيل الثوب . حتى صار كتفها بمحاذاة ركبتي. صحت على فرحان الاسمر، وانا ما زلت احمل فاطمة على كتفي :

- لك يا فرحان .خلص ثوب فاطمة من يد امها،لانه كمن ان امشي.

يا الله .! فمرة واحدة . نعم . مرة واحدة ، فتحت عينيها . متى يا فرحان فتحت عينيها ؟

وفرحان الاسمر شهد : انها في عينيه ، فتحت عينيها .يالطيف!:

- وانا احاول ان افك اصابعها عن ذيل ثوب فاطمة . يالطيف! فانها فتحت عينيها مرة واحدة .واذا بهما قرصان من الدم . نظرة الي بهما ، نظرة تكسر الظهر . انا قلت لنفسي فورا : كأنه ابو فاطمة ،على ابواب الضيعة ، والفشك في بارودته لا يطق . قلت لها : يا ام فاطمة . انا فرحان الاسمر ، ومعي ابو فهد ، لنحملكما انت وفاطمة الى المخيم .

فان فاطمة ، لما رات امها تفتح عينيها ، صاحت من فوق كتف ابي فهد : - ماما .

يا الله ..!

فتحركت يد ام فاطمة بلمح البصر ، تجر فاطمة لعندها . واذا بفاطمة ، وقبل ان ننتبه ، قد عادت الى الارض . واصبحت فوق صدر امها .

لم ننتبه الى ام فاطمة ،كيف انها باقل من لمح البصر ، كانت تضم فاطمة بين ذراعيها . فقد شغلتنا النظرة الاخيرة التي اخذت أجفان ام فاطمة . تنطبق عليها .. شيئا .. فشيئا : بمقدار من الحنان يساوي رضى الله .بشعاع من الدفء يساوي كل شمس الربيع، وتحتها ، تتفتح براعم كل الزهور للحياة . بما لا يشبه الفرح .باكثر منه كثيرا . نعم . فانا قلت لنفسي : كان ابا فاطمة . وقد طقت من بارودته العمثلية ، فشكة .

— ١٥ —

كم يحلو للعشرة ان يشهدوا ، ومنهم ابو فهد . خصوصا عندما يشهد التسعة منهم ضد الشاهد الاول ابي فهد : كيف انه ظل يسخر يومها من فرحان الاسمر . عندما حاول فرحان بعد ان عادت ام فاطمة الى الفيبوبة ، ان يفك اصابعها عن ذيل ثوب ابنتها . واذ لم يستطع ، ترك المحاولة يائسا وهو يهتف : ان الفولاذ يلين ، ولا تلين قبضة هذه المرأة . كيف ان ابا الفهد قال له وهو يسخر منه : ضيعت قوتك يا فرحان الاسمر . فماذا جرى لك ؟ حتى انك لم تعد تستطيع فتح يد امرأة غائبة عن الوعي!

ثم كيف انحنى ابو فهد ، وامسك بقبضة ام فاطمة وحاول فتحها، يا سلام !فلم يستطع كذلك . ثم حاول بشدة . ثم بعنف . وبكلتا يديه ، وقد نفرت عروق رقبته ، واخذ العرق يكلل جبينه . لا فائدة .مستحيل.

يشهد التسعة ضده . لكن ، يا الله . فكم يحبونه ! ويحبون من يومها ، ان يمشوا ، اينما مشى ابو فهد ، وراءه .! فلقد شاهدوه يومها وهو يحمل فاطمة ويمشي وراء ام فاطمة ، محمولة على ظهر فرحان الاسمر ، منكس الراس على اقدام فاطمة التي كانت تدق صدره، بينما فمه ، بشاربيه الكثيفين المفتولين ، يطبع على يد ام فاطمة المتدلية اقدامه ممسكة بذيل ثوب فاطمة من الخلف ، قبلا ..قبلا.. مسافتها طول الطريق من اعلى المنحدر الى المخيم . حذرا وهو يمشي وراء فرحان الاسمر ، كالعسكري في الصف ، ان لا يخطو وراءه ،الا خطوة موحدة موزونة مع خطواته ، لئلا يختل امتداد الجسر الحلو الصغير الممتد ما بينه وبين فرحان الاسمر ، عبر ذيل ثوب فاطمة المشدود من عند صدره ، الى يد ام فاطمة الممدودة من عند ظهر فرحان الاسمر . فعلى نهاية الجسر ، عند يد ام فاطمة ، ظل ابو الفهد ينحني طول الطريق ، ويطبع قبله .

قال التسعة : كأنه كان يقبل ارض الضيعة . ومواطىء اقدام ابنة فاطمة ، في ارض الضيعة .

قالوا : لا بد انها اليوم تمطر كذلك ، في الضيعة ، من عيون ابي فهد . ولا بد ان من هم موجودون من اطفال البصاويين هناك ، يبكون اليوم ، فوق ارض الضيعة ، بكاء ابي فهد، على يد ام فاطمة.

قال التسعة :

- ونحن نمشي حول الموكب الحزين . نقول لفرحان الاسمر ، يا فرحان لا تستعجل . لئلا تشد يد ام فاطمة المحمولة على ظهرك وانت في المقدمة ، فاطمة المحمولة على كتف ابي فهد ، وهو يمشي وراءك .

نقول لفرحان الاسمر : لا تستعجل . فيستعجل .

ونقول لنمر البصاوي : يا ابا فهد . لا تبك . فيبكي .

نسأله : لماذا يا نمر يا بصاوي ، انك تبكي ، مثلما يبكي الاولاد الصغار ؟!

فيقول : ابكي ضعفي .

نساله : فنحن يا نمر يابصاوي ، جربنا قوتنا ، جميعا . محاولين فتح قبضة ام فاطمة . بما فينا ، اقوى شاب في مخيمنا ، فرحان الاسمر . فلم نفلح. فلماذا تبكي؟

فيقول : ابكي ضعفي ، يوم ان كان لا يطق الفشك ، من البوارد العثملية العتيقة ،على ابواب ضيعتنا .

فيقول : لاني لو لم انزل لابحث عن الذخيرة ، لتركت لفهد، اما بقوة ام فاطمة .

فيقول : ابكي ضعفي . لكن لفهد ، فاشهدوا يا تسعة . فلااعلمه سوى يد ام فاطمة هذه ، ليمسك بمثل فوتها ، ارض ضيعتنا. فاشهدوا يا تسعة . ان طق الفشك او لم يطق . فاشهدوا يا تسعة. عندي ولد وحيد هو الفهد . فلا اعلمه سوى ارض ضيعتنا . فاشهدوا يا تسعة . لا يبرح مكانه من عند ابوابها . فالدنيا وراءها لا تساوي حتى ان يلقي عليها الانسان مجرد نظرة . الا ليسأل : كم بقي يا بنت العم في الصرة من الفشك ؟ فان كان له زوجة تحبه وهي جنبه، تناوله الفشكة تلو الفشكة حتى نطق آخر فشكة . فيوصيها بالاولاد وهو يسقط . وان لم يكن له . فما احلى ارض الضيعة حبيبة يعانقها، وهو ينام ، ابن ضيعتنا ،على ابواب الضيعة .

— ١٦ —

يحفظون لفاطمة ، عند عمتها ،في صندوقها العتيق ، ثوبها المقصوص من ذيله ، ايام كانت صغيرة . ذلك الذي كانت تلبسه ليلة الطوفان.

فصوه ، يومها ، بسكين فرحان الاسمر . هناك . من يد ام فاطمة . فأسلمت في ساحة المخيم روحها ،في ذلك الصباح الذي لا يعرف ، سوى الله ، وصفه . ويدها مطبقة على قطعة من ذيل الثوب ظلت تحملها معها الى القبر .

قال اللاجئون : كأنه شيء من فاطمة . لنظل تمسك بها ، كلما احاطت بها المخاطر ، عند اعالي المنحدرات . لتظل من قبرها ، مادة اليها يدها وتمسك بها ، فلا يستطيع السيل ان يجرفها الى اعماق الوادي .

لكن فهدا كبر بعد ذلك . وكبرت كذلك ، فاطمة . مخطوبين لبعضهما . بصلة تشبه جسر يد ام فاطمة وهي نمسك بابنتها ليلة الطوفان . فاللاجئون قالوا : انه الحب . الا نرون فاطمة كلما تشاهد الفهد ، فكأنها من شدة فرحها ، اسيرة قد خرجت للتو من قيود الاسر . وفهدا كلما شاهد فاطمة ، فكأنه ، وهو اشجع ولد مقاتل في المخيم ، قد وقع في الاسر ، فورا ، وبدون قتال .

وابو الفهد قال : انه حب البصة . فكذلك يحب الفهد .فلنكتب لهما كتابهما . لكن يا فهد ، هل تتزوج وانت لاجيء وهي لاجئة ، بطريقة لاجئية ؟

قال فهد ، وقد وقف في ساحة المخيم بين اللاجئين يوم كتب الكتاب . فاذا به ، اطول من ابيه ، بشبرين .. بثلاثة .. فما احلاه عندما يحكي عن فاطمة .

قال فهد ، وهو ينشر من عبه ، ثوب فاطمة المقصوص ، آتيا به من عند عمتها .

قال : انظروا يا لاجئون . فهل تعرفون ، ماذا بيدي ؟

قالوا : نعرفه . فهذا ثوب فاطمة الذي كانت تلبسه ليلة الطوفان.

قال : لا . بل هذه رايتكم يا بصاويون . ومن يد ام فاطمة ، رغم السيل والويل والليل ، لم تسقط الى الوادي . انشرها اليوم ، انا، من اعماق صندوق عمتها العتيق ، وامشي بها ، فوق كل هذا الظلام، ولا اخاف . الى ان ادخل بها على ابي فاطمة ، واغرسها هناك، عنده، على ابواب الضيعة . واستاذنه نيابة عن فاطمة ان يرضى بي لها زوجا . فهكذا يا لاجئون . لا اتزوج بنتكم بطريقة لاجئية. ذليلة في هذه الغربة ، مخيمية . لا اتزوج فاطمة الا بطريقة بصاوية . عربية الاصل، فلسطينية ، جبلية .

والفرحان الاسمر ، نط يومها من مكانه ، مثل الشباب . هتف والدموع تملأ عينيه : لعيون ابي فاطمة .

هتف الاسمر الكهل ،وهو فرحان :

— اسمعوا يا لاجئون .

فلما اصاخوا بآذانهم . صاح فرحان ، وهو يشير باصبعه ، من ساحة المخيم باتجاه الضيعة :

— اسمعوا ، كيف يطق هناك ، الفشك .

— ١٧ —

الليلة عرس فاطمة . وقد ذهبت اللاجئات البصاويات ليحضرنها من عند امها ، من الجبانة المجاورة ، في شمال المخيم . من فوق قبر، اخذن يتجمعن حوله في دائرة كبيرة ، وفي ايديهن بعض الفوانيس . وداخل الفوانيس لمبات من الغاز ، تضيء بنورها الخافت ، ليلة العرس للمحتفلين هنا ايضا ، وهم فرحون . للصغار والصغيرات من ضحايا ليلة الطوفان البعيدة وهم ملتفون حول قبر أم فاطمة ، في دائرة كبيرة من القبور الصغيرة .

وجدن فاطمة الحلوة هناك . وقد الصقت خدها بتراب قبر امها، وفرشت شعرها الاسود الطويل على حجارته . كأنها لتنام في حضن امها ، مقدار ساعة من الزمان . فتسللن من حولها بصمت ، وهن يحذرن ، والاصابع على الشفاه ، بناتهن الصبايا من ان يقتربن من فاطمة ، او يتكلمن معها .

همسن لهن ان يتركنها : — الا تشاهدن ان امها ممسكة بها ، من ذيل ثوب الزفاف . فمن يقدر ، ان لم تتركها امها من تلقاء نفسها، من يقدر ان يفك اصابعها عن ثوب فاطمة . من يقدر !

قعدت نسوة البصة العجائز هناك . كل واحدة على قبر . وامام كل واحدة منهن فانوس . وكل واحدة من امهات الصبيان من بينهن،اخذت تخطب لابنها ، من جارتها القاعدة عند قبر ابنتها ، عروسا،وتزوجه:

— هل تعطينني يا ام امينة بنتك لابني علي . فلو انهما عاشا لكانا الليلة في عمر العرسان والعرائس .

وام امينة ، تعطيها ابنتها امينة ، عروسا لابنها علي . لكن تقول لها همسا .

— لو طلبتها غيرك لابنها ، لما قبلت ان ازوجها .لكن ازوجها لعلي.

— يا اختي ام امينة . الم يجدوهما في الوادي : امينة وعلي،صباح يوم الطوفان ، جنب بعضهما ؟

— نعم يا ام علي . كأن كل واحد منهما كان يحاول تخليص الآخر من الغرق . لذلك ، دفناهما هنا ، في الجبانة ،في قبرين متجاورين.

— فمن هو احق بأمينة ، اكثر من ابني علي ، يا ام امينة .

— لا ازوجها الا لعلي ، فلا تزعلي ..

هكذا فعدت الامهات من النسوة البصاويات في الجبانة ، ليلة عرس فاطمة . كل ام صبي تخطب عروسا لابنها من جارتها ، فتفرح الاثنتان بزواج ولديهما . يا اله السماوات والارض ، كم تفرحان!كل امين معا ، بعرس ولديهما المتجاورين في قبرين اثنين ، وتحكي كل واحدة منهما للاخرى . فأم الصبي تحكي عن حلاوة علي، وعن طوله، فلا بد انه لو عاش حتى اليوم لكان اطول من ابيه ، بشبرين .وعن شجاعته : فلما نزلنا من البصة نازحين ، وابوه قال ليعود بذخيرة الفشك . فكم انه ظل يسأل اباه ، هل ارجع معك؟. وبكى، وعمره خمس سنين . ولم يسكت الا عندما وعده ابوه :انك ترجع معي. فلو انه عاش حتى اليوم ، فهل كان يوجد ولد اشجع منه بين جميع شباب المخيم ؟

وام البنت تحكي عن جمال امينة : فلو انها عاشت ! تخزي العين عنها يا رب . وتحرسها بعنايتك من شر الحسد والحساد .فهل كان بين جميع بنات هذا المخيم ، بنت احلى منها ؟ بيضاء على حلة

سوداء . على فم صغير بقدر الفستقة . الى عيون . يارب متى احلى عيونها ! تشتهين العسل ؟ففي كل عين من عينيها قرص عسل. الى خدود ! تشتهين التفاح ؟ ففي كل خد ، تفاحة حمراء . آه يا أختي ،تشتهين ان تنظري الى نور البدر ؟ فانظري الى وجهها ،تشاهديه في ليلة تمامه .

فعدت ، هكذا ، امهات البصة . يزوجن اولادهن لبناتهن ، في دائرة كبيرة من قبورهم الصغيرة وهي ملتفة حول قبر ام فاطمة . يا الله ! فكم انهن يفرحن بذلك ، في جبانة المخيم ،هذه الليلة !.

— ١٨ —

وعمة فاطمة العجوز ، كانت بينهن أيضا ، فرحانة .

تفكر : كم يعتز اخي ، في الضيعة ، بعريس ابنته ، بعد ان وصل اليه فهد ، وحفر ، واخبره ،وهو يستأذنه ،عن العلامة :

ـ اسلم عليك يا ابا فاطمة .فلولا ان فاطمة تحبني وأحب فاطمة. فمن اين كانت عمتها تعطيني سر العلامة ؟ وأنت اوصيتها على ابواب الضيعة ، ان لا تعطي السر الا لمن يرجع من اولاد الضيعة الى الجبل، وفشكه غير مسترطب . يطق العشر فيصيب بها عشرة . وقد طال الزمان يا ابا فاطمة قبل ان يرجع أحد اليك . قالت لي العمة : كنا نظن ان الرجال النازحين يرجعون بعد ايام ومعهم في الصرر ذخيرة الفشك، لنعطيهم سر العلامة . لكن طال الزمن ، وها أنت ترجع يا فهد . فهل ان الفشك في صرتك ، غير مسترطب ؟ تضرب من البارودة عشرا ، فتطق العشر .

قلت : يطق . ولا تسترطب واحدة من الف الف فشكة .

قالت :

ـ فاحفر على يسارك ، جنبه . عندما تصل لعنده . على مسافة خطوتين وأنت تواجه القبلة . فقدام عينيه ، حفرنا هناك ، انا وام فاطمة . وفاطمة تنظر الينا وعمرها سنة واحدة . وابوها ، وقد رموه من قلب الوادي ، بالقنابل ، واصابوه . يقول : استعجلوا . واحفروا .قبل ان يصلوا . والدنيا ليل . وسيصعدون عند الصباح .ثم اتركوني وانزلوا بالبنت . فلا تعطوا العلامة الا لمن يرجع ومعه في صرته فشك كثير غير مسترطب .

قالت العمة : تحفر هناك . جنب قبره . على ابواب الضيعة.حيث دفناه هناك . في المكان الذي سقط فيه ومات ، قبل ان ننزل .وتحكي له ان استطعت يا فهد ان تصل الى هناك لتحفر على مسافة خطوتين الى اليسار ، ووجهك الى القبلة ، وعلى عمق ذراع واحد . تحكي له عما وجدت في الحفرة . يعلم فورا انك من عندنا . وان فاطمة تحبك. ويأذن لك ، وهو راض ومسرور . فذلك يا فهد . يا ابن النمر البصاوي ، هو سر العلامة.

عمة فاطمة العجوز ، كانت بين النسوان ،في جبانة المخيم ، وايضا فرحانة . تقول لنفسها ، لكن كأنها تحكي مع ام فاطمة :

ـ من غير فاطمة ، او قبل فاطمة ، من بنات جبل البصة ، حصلت على عريس مثل عريس ابنتك يا ام فاطمة ؟! فبالحسن ، يا رب ما احلاه! وبالطول : اطول من ابيه بشبرين او بثلاثة ، فهو بطول اخي ابي فاطمة . وبالشجاعة : بصاوي ولا يتزوج بطريقة لاجئية. ابو العروس في جبل البصة ؟ ايه . لا مانع . نذهب ونستأذنه نيابة عن العروس . معنا السر من المخيم ، فلا نرجع الى عمتها الا وقد عرفنا العلامة.

— ١٩ —

رجعت فاطمة الى المخيم اخيرا ،بعد ان اذنت لها امها ، بالزواج من فهد .

فهناك ، في الساحة ، كانت شمس فلسطين تسطع . ولمبتها الكبيرة ، تملأ الدنيا بالنور .

وقد هب نسيم ليلي حلو منعش ، فارتعشت لمبات فهد التسلاث والعشرون الصغيرة . وأخذت تنشر نورها .. هكذا .. وهي تتمايل فوق رؤوس اللاجئين ، وهم مبسوطون ، ويتمايلون طربا . فكأنها من اجلهم ، ترقص بنورها وقد طربت .

وآلات الموسيقيين فوق التخت تدق .

والمطرب الطيب . آه ، فكم جاد المطرب ، بكل ما في قلبه من اللوعات ! آه .. فكم وهو يغني ، بكى المطرب !

قال اللاجئون : هذا المطرب وان لم يكن لاجئا . فلا بد انه في حياته ، قد قاسى بعض ما قاساه اللاجئون . لا بد .

والمطرب . آه .. فكم غنى عما في القلوب ، وعن الحبيب والمحبوب : ان الله الذي يعلم ما في القلوب ، قادر ان يجمع الحبيب بالمحبوب .

فاللاجئون قالوا له : ـ يعلم ما في القلوب .

وسألوه : فمتى .. يجمع الحبيب بالمحبوب ؟

فعند ذلك ، كانت فاطمة قد رجعت الى المخيم ، في طريقها مع جمع النسوة المرافق لها ، الى بيت عريسها ، في الطرف الجنوبي . مررن قريبا من الساحة ، والعجائز قلن لمن قابلهن من رجالهن ،ان امها اذنت .

فلن : انها قالت : ما دام ان اباها قد اذن . والفشك من بارودة فهد ، يطق . فماذا اقول انا ؟ فاني لا امسك بها من ذيل ثوبها. لان يدي مشغولة . اضعها على فمي وازغرد .

فلن : انهن سمعنها من قبرها ، تقوم وتزغرد . وتقول : من عند ابي فاطمة ، وصلها خبر .

نسألها : ماذا من عند ابي فاطمة ، وصلك خبر ؟

تقول : ان ازغرد . قد وصلني خبر .

والنمر البصاوي ابو فهد ، قفز فلى قدميه ، عندما سمع ذلك واخرج منديله الابيض من عبه . وركض الى منتصف الساحة،وهو يلوح به فوق رأسه ، وهتف :

ـ يا ضيوفنا . يامدعوين الى عرس ابني فهد . هزوا مناديلكم معنا فوق الرؤوس ، وافرحوا ، مثلما نحن نفرح . وصلت عروسنا ، وبعد قليل يصل العريس . فلا ازفه الى عروسه ،الا والطبل يدق .كما كان يدق طول الليل ، عندما كنا نزوج اولادنا في جبل البصة .ياطبال، دق طبلك يا طبال . فقد اقترب موعد وصول العريس .

والطبال اسرع من فرنة حول الساحة . ووقف في منتصفها .ودق. فوقف التخت الفوقاني مع المطرب عن الآهات والاشواق .

والطبل دق : دي . دي . دي .

وابو العريس ، النمر البصاوي ، صاح :

ـ الى الدبكة يا شباب . يا مدعوين الى عرس ابني فهد. يا اصحابه . يا جيراننا الطيبين . هزوا مناديلكم فوق الرؤوس . وارقصوا معنا . وافرحوا . ليفرح بكم عمكم ابو فهد . فهل كل ليلة عندنا عرس ؟

— ٢٠ —

نهض اللاجئون عن الارض متحمسين . والطبل دق دقة بصاوية . ياسلام !

كأن الف شباك في بيوت ضيعتهم ، مشرفة على البحر وعلى الوادي ، قد انفتحت ، دفعة واحدة على ساحة المخيم، وفيها الف صبية حلوة ، تستقبل بالزغاريد ،فتيان الجبل ، زاحفين الى عرس فهد ، من كل حدب وصوب .

نهض اللاجئون وانتظموا في نصف دائرة كبيرة ملأت ساحة المخيم كلها . امسكوا بأيدي بعضهم البعض ، فالتصقت اكتافهم من الجانبين. والطبال دق اول دقة . فمالوا معها : هكذا .. صفا واحدا .. مشتاقا ملوعا .. كأنه وان كان يضم مئات الوجوه البشرية ، لكن .. كأنه ..

ليس فيه سوى وجه رجل واحد ، عاشق ومتيم .. لكن .. منكوب بالحب ، .. منفطر الفؤاد لفراق الاحبة .

والضيوف وقفوا متفرجين .

ففي عيون اللاجئين ، رأوا وميضا غريبا من الشوق واللهفة والمحبة .. شاخصة .. الى الجنوب .. الى الجنوب .. بانجاه جبل البصة .

قال الضيوف لبعضهم البعض ، همسا :

ـ هل ان هؤلاء اللاجئين ، يرقصون الدبكة في ساحة هذا المخيم ، ام انهم قد عزموا على السفر ؟

وقفوا يتفرجون .. دون ان يشتركوا في الرقص . وفكروا :

ـ يا الله ! من يستطيع ان يسافر مع هؤلاء اللاجئين بنفس سرعتهم ؟ من يستطيع من بيننا ان يفعل ذلك ؟! لا احد . فلا بد لاحدنا ، لو انه حاول ذلك ، من ان ينقطع نفسه ، في اول الطريق ، ويرجع .

والطبل دق الدقة الثانية ، بعنف . فدوى الصوت : دي .. بم .

وكان اللاجئون يقفزون في الهواء ، فنزلوا الى الارض دفعة واحدة ، حيث الفوا بثقل اجسامهم على الساحة ، كانهم بضربة واحدة ، يريدون ان يفتحوا منها طريقا معبدا ، يبدأون منه السفر . فاهتزت ارض المخيم .

ـ يا جبل البصة ، تكلم . هل وصل فهد ورفاقه لعندك ؟

دق الطبل :

ـ دي . لا بد انهم وصلوا .

واللاجئون قفزوا فرحا :

ـ فافتح لهم يا جبل البصة ، ذراعيك . وقبلهم من خدودهم الحلوة قبلتين . على كل خد قبلة . نحن اولادك ، وانهم اولادنا . لكن يحملون في عيونهم اشارة : انهم ليسوا مثلنا ، لاجئين .

ومال اللاجئون بخفة وحنان ، وكانهم يتعانقون مهنئين بعضهم البعض ، وايديهم متشابكة :

ـ اشتقنا اليك يا جبل البصة . فكيف حال ابي فاطمة . هل انه نهض من فبره اليوم ؟ فان كان الاولاد قد حملوا اليه ذخيرة غير مسترطبة ، فلا بد انه قد نهض . وتتمايل انت يا جبل البصة وترقص من الطرب : آه .. فقد عاد وطق الفشك .

رقص اللاجئون ، وابو الفهد صاح . لوح بمنديله الابيض فوق رأسه ، وقفز في الهواء مع القافزين ، ثم نزل وصاح :

ـ لعيون الله يا فهد . فانك وعدت . ان كنت ابني ومن ظهري ، فلا بد انك وصلت ووفيت .

وكان الزمار ساكتا ، فحين ذلك ، زمر .

كان الطبال يدق : ان الفهد مع رفاقه وصلوا ، ووفوا بالوعد .

فالزمار عند ذلك ، زمر ، مذكرا :

ـ لا بد ان يعود الفهد ليتزوج بفاطمة الحلوة ، يا طبال ، هذه الليلة .

ثم انه زمر برقة وحنان :

ـ ما احلاهما عندما يمسكان يدا بيد . فكان فاطمة من شدة فرحها ، اسيرة وقد خرجت للتو من قيود الاسر . وكان الفهد ، وهو من اشجع الشباب المقاتلين ، قد وقع في الاسر فورا ، بدون قتال .

ـ ٢١ ـ

لكن الضيوف ، من اصحاب فهد ، ظلوا يسألون ، وقد تجاوز الوقت نصف الليل : عن مكان التلبيسة . يعنون اين يلبس العريس ملابس زفافه قبل ان يأتي الى حفلة العرس ؟ ولماذا ان احدا لم يدعهم للذهاب الى حيث يلبس العريس ملابس زفافه ؟ لان العادة عندهم ، ان يكون اصحاب العريس موجودين معه حين يرتدي الملابس التي سيدخل بها على عروسه . فهل انهم ليسوا محسوبين من بين اصدقاء العريس حتى لم يدعهم احد الى التلبيسة ؟

ويعتبون وهم زعلانون :

ـ فاذا لم نستطع ان نشارك في ليالي التعاليل السبع ، وهي سبع ليال سابقة لليلة العرس يقضيها اصحاب العريس في الاحتفال كل ليلة ، تكريما للعريس وحفاوة به ، فلا اقل من ان نكون مدعوين ليلة العرس الى التلبيسة . لنساعد العريس في ارتداء ملابس زفافه ، ولنصاحبه الى مكان حفلة العرس . فكيف ان احدا لم يدعنا الى ذلك ؟ واين هو المكان ؟ ان يلبس العريس الآن ملابس زفافه قبل ان يحضر الى هذا المخيم ؟ هل في البلدة ؟ فقولوا لنا اين يكون ذلك ؟ في اي حارة منها وفي اي بيت ؟ لنذهب الى هناك ، ونأتي معه حين يتوجه الى المخيم .

وابو فهد ، قال لهم ، وهو يعتذر : بان الفهد لابس احسن ما لبس من الثياب كل حياته . فلا يبدلها في ليلة زفافه . وانكم تعلمون يا ضيوفنا ، انه منذ سنتين ، يلبس احسن الثياب التي ارتداها طيلة حياته . فان كانت التلبيسة . الم تحضروا منذ سنتين ، عندما ودعتموه هنا ، وهو مسافر ، حفلة التلبيسة ؟!

فلم يفهم الضيوف . وسكتوا على مضض .

فالوا لبعضهم البعض همسا :

ـ نعم . نعلم انه منذ سنتين يلبس ملابس الفدائيين . وقد حضرنا وودعناه اول ما نطوع ولبسها وخرج من المخيم ليلة كتب كتابه. لكن هل تكون هي ملابسه في ليلة زفافه ؟!

ثم ان الضيوف ، وقد وجدوا ان الفرصة سانحة ، وفي ذهنهم من اول الحفلة ، انهم ما داموا لم يتمكنوا من تكريم فهد قبل حفلة زفافه ، فلا اقل من ان يكرموه بعد ذلك .

فانهم قالوا لابي فهد :

ـ انتم مدعوون لتحضروا عندنا غدا ، طعام الغداء . فهد وجميع اهله ، وكذلك كل اهل البصة .

وكان ابو الفهد ، وقد سمع الدعوة ، قد اخذ يشير الى باب المخيم المطل على الطريق العام . فانه هتف :

ـ ها هو قد وصل . فوجهوا دعوتكم اليه .

فنظر الجميع .

هناك ، كانت تلمع مصابيح سيارات عديدة قادمة باتجاه باب المخيم الرئيسي . ثم وقفت السيارات ، دفعة واحدة ، وانطلق من عندها ، سيل من الرصاص في الفضاء ، يعلن عن وصول موكب العريس.

فتعالى في ساحة المخيم ، هدير من الفرح :

ـ اهلا بالعريس . يا مئة اهلا وسهلا بالعريس .

والنسوان زغردن من بيت ابي فهد :

ـ انه اسمر . حلو وصغير . يا عيني عليه .

وركض اللاجئون ، مرة واحدة ، متسابقين الى باب المخيم ، لاستقبال العريس . بينما كان المغني ، من وراء الميكروفون ، يغني معلنا عن قرب التقاء العروسين :

ـ حسن والتقى بالحسن .

متسائلا :

ـ اي حسن أحسن ؟

آه .

اي حسن من بين الاثنين ، يا لاجئون ويا لاجئات .. احسن ؟

ـ ٢٢ ـ

ان الضيوف ، عندما وصل موكب العريس ، ركضوا ايضا . وكل واحد منهم ، فاتح ذراعيه ، ليعانقه . لكن اهل العريس ، سبقوهم اليه . فهل من المعقول ان يبوسه اصحابه من خده ، قبل اهله البصاويين وهم ينتظرون ان يحتفلوا بليلة عرسه ، منذ سنتين .؟

لكن العروس . يا سلام ، على العروس .!

لكن العروس ، كانت حينذاك قد ركضت امام الجميع .

رآها الضيوف وهي تركض ، قادمة من جهة بيت نمر البصاوي ، مارة بمنتصف الساحة في طريقها الى باب المخيم .. هكذا .. وشعرها مفروش على كتفيها .. وحافية .

يـا سلام !

اهل العريس سبقوا الضيوف .

لكن العروس سبقت اهل العريس .! راكضة ، بعد ان افلتت من بين ايدي النسوان، وهي فاتحة ذراعيها، وتصيح : ـ فهد. حبيبي فهد. يا عيب الشوم !

هكذا فكر الضيوف .

لا يجوز ان تركض البنت وهي صبية ، وحلوة ، هكذا .. امام الناس ، علنا ، لاستقبال عريسها . بل عليها ان تنتظر ، حتى يذهب الناس وتنتهي الحفلة ، وتختلي بعريسها ، وحدهما . بعد ذلك ، يحبان بعضهما البعض كما يريدان ، دون حرج . تبوسه . يبوسها . تذوب بين ذراعيه . تفرش شعرها على كتفيه . تضيء عيناها امام عينيه . لا مانع . هناك ، يحلو للرب ، ان يبارك الحب والحنان . ينبسط الله ، كلما رأى البشر ، هكذا .. متحابين ، بطهارة وحياء .

لكن عروس فهد لم تنتظر . فيا عيب الشوم . بل ركضت قبل الجميع وسبقتهم ، لتتلقى قبل الجميع عريسها ، بين ذراعيها .

يا عيب الشوم .!

هكذا فكر الضيوف :

ـ فلا بد ان هذه البنت ، قد انتظرت عريسها ، طويلا .. طويلا . وانها تحبه كثيرا .. كثيرا .

ان الضيوف شاهدوا فاطمة وهي تركض ، ووراءها اهل العريس من البصاويين ، ثم بقية اللاجئين من سكان المخيم . فركضوا . فلما وصلوا الى باب المخيم ، حيث كان موكب العريس قد توقف ، والتف هناك ، حول الموكب ، سياج كثيف من البشر ، فانهم لم يعودوا يشاهدون شيئا من الموكب .

ـ اهلا بفهد . اهلا بالعريس .

ودوت مئات الطلقات في الفضاء ، تعلن عن الترحيب والفرح والمحبة . وسط زغاريد مئات من النساء ، كن قد تجمعن الآن ايضا ، قرب باب المخيم . ثم انفرجت الصفوف ، ليتقدم من قلبها ، موكب العريس .

ثمة ايد بالآلاف ، كانت ترتفع فوق الرؤوس .

ومن كانوا لا يشيلون ، انهم لم يستطيعوا ان يسبقوا غيرهم ، كانوا ايضا ، قد رفعوا ايديهم عاليا فوق رؤوسهم ، وكأنهم ايضا يشيلون . والعروس ، وابو العريس ، واعمامه واخواله واهل ضيعته وبقية احبابه ، يقفزون ويبوسون . ولو لم يقفزوا ، لما كان بامكانهم ان يصلوا الى العريس ليعانقوه . وكذلك كان يقفز للعناق كل من وصل الى هناك ، من اللاجئين . والبعض حملوا اطفالهم عاليا ، فوق اكتافهم .. فوق رؤوسهم . وكان الاطفال يبوسون . يمرغون خدودهم الصغيرة، ويبوسون .

من من أطفال المخيم لا يعشق فهد .؟

حبيب الكبار والصغار ، فهد .

الف الف قبلة للعريس الفهد البصاوي ، في ليلة عرسه .

فمن هناك . على جانبي الحشد الملتف حول موكب العريس ، ظل يعانق العريس ، بروحه وقلبه ، كل من لم يكن قد استطاع ان يصل اليه ، ليعانقه عن قرب .

من كل ناحية ، تعالت الاصوات :

ـ افسحوا الطريق امام العريس .

ومشى اللاجئون بالنعش ، باتجاه الساحة .

حمل اللاجئون عريسهم الاسمر . الحلو الصغير . يا عيني عليه .

حملوه في النعش على اكتافهم ، من عند باب المخيم ، آتيا الى ليلة عرسه . وعروسه على رأس المسلمين عليه ، تستقبله بالاحضان .

فمن قفز اول من قفز من كل سكان المخيم الى العريس ، ولمس النعش بيديه ، ثم قفز وباس ، قبل فاطمة ؟

لا احد .

واللاجئات المسنات . واللاجئات الصبايا . وقد وصلن جميعا الى باب المخيم قادمات من بيت ابي فهد ، وكل واحدة تسأل الثانية . والدموع تجري على الخدود :

ـ يا اسم الله . كيف عرفت فاطمة وهي بيننا . ونحن بعيدات عن باب المخيم ، في اقصى جنوبه . كيف عرفت ان الفهد لم يكن قادما الى المخيم يمشي على رجليه ، بل محمولا في النعش ، كيف عرفت ؟!

ويحكين وهن مستغربات :

ـ فما ان سمعت صوت الفشك يطق على باب المخيم ، حتى افلتت من بين ايدينا وركضت. ونحن نمسك بها ونقول : عيب يا فاطمة، ان تخرجي امام الرجال لاستقبال فهد . فلا ترد . وتخلع من قدميها الحذاء ، وتركض وهي حافية . فكيف انها عرفت ؟

وام فهد انت من بعيد ، وهي تعرج . تسندها عمة فاطمة العجوز. تدق على صدرها ، وتقول : اهلا . اهلا يا عريس الزين يا فهد . اهلا . عملها ابوك بنا . الله يسامحه ، لكن كيف انني لم اعرف .

وتهتف : صدقت فاطمة .

وتعيد : صدقت فاطمة فلله اشهد : انها تحبه اكثر من امه . فان كان انها لم تعرف مثلي منذ الصبح حتى نصف الليل . لكن ما ان طق الفشك على باب المخيم . حتى عرفت . امسك بها على باب البيت وقد وقفت لحظة لتخلع حذاءها ، ودموعها تجري على خدها ، واسألها : كيف يا فاطمة ؟ ولماذا تخرجين هكذا ؟! عيب . وهي تقول لي : يا امي . فهد لا يرضى ان كان عائدا الى ليلةعرسه ، ان يضرب له احد على باب المخيم ، طلقات الفشك . وتركض . وانا لا افهم . لله اشهد . لو اني كنت احبه اكثر منها ، لفهمت . نعم . فما اكثر ما عرفت كيف ان فهدا لا يقبل في الاعراس ضرب الفشك . فكيف يقبل لو كان يمشي للدخول على عروسه ، ان يضرب احد له فشكة ؟!

مشى اللاجئون بنعش فهد ، من باب المخيم نحو الساحة . والمسافة الف متر من الارض . فبصعوبة مشوا . يحملون فهدا على اطراف اصابعهم . وفي كل متر من الارض ، كان كمائن من حب البشر ، كانت تقفز من حفر حول طريق المخيم ، غير مرئية ، لتعترض النعش ، وتقاتل . دفاعا عن قبلة يطبعها الكامنون على الخشب . عن لمسة باصابعهم لمسامير النعش .

قالوا : ليس كأنه النعش ، وفيه فهد . بل كأنه ملء صندوق من عز جبل البصة . وقد احكموا على الواحه دق المسامير ، لئلا يفسد بذل ارض المخيم .

قالوا : كأن الكمائن، من ذل المخيم ، تخرج صاعدة الى عز الجبل. وقد طوى اصحابها من فوق رؤوسهم آلاف الخيام ، ورفعوا بدلا منها ، للقتال ، راية . فمن يستطيع ان يعترض طريقهم ؟

وفاطمة تقفز وتبوس .

لكل لاجيء من احد خدي فهد ، قبلة واحدة .

ولفاطمة ، فيا لحظها السعيد ، حصة الاسد . خد فهد الآخر ، تطبع عليه وحدها كل القبل ، فلا يشاركها فيه احد .

أليس انه عريسها . وزوجها . وحبيبها .؟

للبصة خد . ولي خد .

ولنا ، معا ، فهد .

نصعد به الى الجبل ، لنمضي هناك ، يا فهد ، شهر العسل . من شباك مطل على البحر وعلى الوادي : فهل كل هذا البحر يا ابي لنا .

لأولاد ضيعتنا ؟ وكل الاشرعة البيضاء تأتي من قلب الافق الازرق، قاصدة بيتنا ؟ وعلى الوادي : متى اسرح يا أبت بغنماتنا في مرج هذا الوادي العميق الاخضر ؟ واعود بما تلد من الحملان عندما ارجع مساء الى البيت ، وانا احملها بين ذراعي ؟

— ٢٤ —

مشى اللاجئون بنعش فهد . ونمر البصاوي ابو فهد ، اتى فحمل فاطمة على كتفه . مثلما حملها صباح ليلة الطوفان وهي صغيرة . ومشى بها الى جانب النعش . قال : لتكون قريبة من فهد . فتبوسه من خده وهي مرتاحة . فالى متى تظل تقفز نحوه ، لتبوسه ؟

فالآن استطاعت فاطمة ان تلف ذراعها حول عنق فهد ، وان تسند رأسه الى صدرها .

يا سلام .!

والآن ، وقد استطاع فهد ان يرتاح هكذا ، وهو بين ذراعي عروسه ، من عناء السفر ، فان ابا الفهد ، بعد ان سلم على رفاق فهد امام جمع اللاجئين ، وقال لهم : اهلا باصحاب فهد . في ليلة فرحنا بعرسه . اهلا . شرفتمونا . وانا النمر ابا الفهد . ارحب بكم وابوسكم من شواربكم ، فردا فردا .

فانه ، بعد ذلك ، التفت الى ابنه الفهد ، وساله :

— يا فهد . هل وصلت لعند ابي فاطمة ، واستأذنت لعروسك منه ان تتزوج . فانك قطعت لي الوعد ان تصل . فهل انك يا فهد بالوعد وفيت ؟ لتزوجك الليلة بغير الطريقة اللاجئية . بل كبصاوي يتزوج في عز الجبل ، بصاوية .

اجاب رفاق فهد بنفس واحد :

— وصلنا .

فسأل النمر ابنه الفهد :

— فهل انك يا فهد ، عدت من عند ابي فاطمة ، بالعلامة ؟

رد رفاق فهد :

— لعيون فاطمة . فعلى مسافة خطوتين من قبر ابيها ، حفرنا ، ووجدنا العلامة . صاحت عمة فاطمة ، من بين حشد اللاجئات :

— يا اصحاب فهد . يا رفاقه . فما هي العلامة ؟

فالوا : بارودة عثملية عتيقة . اكل تراب السنين خشبها . فلم يبق منها سوى حديد الماسورة .

فهتفت عمة فاطمة :

— فهذه بارودة اخي ، ابي فاطمة ، يا بصاويون . وانا دفنتها هناك بيدي هاتين ، قبل ان نتزح ، من الضيعة .

قال رفاق فهد :

— والفهد ربط برأسها ثوب فاطمة الصغير المقصوص من ذيله . وغرسها فوق قبر ابي فاطمة . وقال : خذوا لراية الصاويين التحية . ضربنا لها من بنادقنا السلام . فكان من البارودة العثملية ، وماسورتها موجهة الى السماء ، عاد وطق الفشك .

بينما عمة فاطمة من بين حشد اللاجئات ، تهتف :

— هذه بارودة اخي . وانا دفنتها هناك بيدي ، ملفوفة بخماري الاسود ، امام عيني ابي فاطمة وهو يموت بعد ان اصابه الصهاينة ، على امل ان يستخرجها من الارض ، اي بصاوي يعود الى هناك ، بعد ايام ، ومعه في صرته ، فشك كثير غير مسترطب .

— زغردن يا بصاويات لام العريس .

ووضعت يدها على فمها ، وهتفت :

— الله يهنيك يا ام فهد . والعريس حقق الوعد .

فزغردت البصاويات : لي لي لي ليش .

فتقدمت ام فهد . ووقفت امام اللاجئات . والتفتت اليهن . ثم انها ، وملء عينيها الدموع ، اخذت تهنهن :

مسوا بالخير على عريس الشباب

وقولوا له ان حضر او غاب

بليلة عرسك عرفنا من العلامة

انك وصلت الى ضيعتنا بالسلامة

لي لي لي ليش

فزغردت البصاويات ، وراء ام فهد : لي لي لي ليش

وحاولت ام فهد ، بعد ان مشت الى النعش ، ان تقفز وتبوس . فلم تستطع .

فالت : اريد ان ابوسه .

فتوقف الموكب كله .

قالوا : هنا كمين صاحب علاقة . مكون من عناصر متمرسة بفهد منذ الزمان الاول القديم . ففقوا يا لاجئون . لا يمكنكم ان تمروا بهذا الكمين ، اذ نقفز صاحبته من حفرة عمقها ثلاث وعشرون سنة من العذاب والتشرد والمشي بفهد ، دون ان تقفوا .

فوقفوا .

أتى رفاق فهد امام النعش . وحملوا ام فهد على اكتافهم . فوضعت فمها على خشب النعش ، في المكان الذي كانت فاطمة تضم منه ، وجه فهد ، بين ذراعيها . وفاطمة ازاحت فمها قليلا عن خد فهد، لتمكن امه من ان تبوسه . وامه باسته مرة واحدة . ونزلت .

قال اللاجئون :

— ام تعانق ابنها في ليلة عرسه . فذلك امر طبيعي . قبل ان تاخذه منها ، للابد ، عروسه الحلوة . فلا مانع .

— ٢٥ —

الليلة عرس فهد البصاوي . فكيف لا يعود به رفاقه في موعد عرسه ، ليفرح به اهله ، كيف ؟

لا . لم يحدث اي خطأ في دعوتكم الى العرس ، يا ضيوفنا ولا اي التباس . ابدا . ههنا مكان عرس فهد . ونحن ايضا ، مدعوون مثلكم ، لنحتفل الليلة بزواج فهد . نعم ؟. فهل اننا كنا نعلم ؟ تسألون : ان كنا نحن نعلم، منذ صباح هذا اليوم ، انه عائد هذه الليلة، الى المخيم ، في نعشه ، لنواريه التراب في جبانه المخيم ، بدلا من ان يدخل على عروسه ، او اننا لم نكن نعلم ؟

سيان ، يا ضيوفنا الاكارم ، علمنا ام لم نكن نعلم . فما هو الفرق؟ من عشرين سنة ، ونحن نتزح ، ووراءنا قنابل الصهاينة . ونحن نركض . ووراءنا غدر السيل ، في ليالي الشتاء . ونحن نشحذ لقمة العيش من دول الاجانب ، مغموسة بالذل . ونحن نموت كل يوم ، مرة. كل ساعة ، مرة . كل دقيقة وكل لحظة من عمر التشرد واللجوء ، مرة . فما هو الفرق ؟ بين ان يعود الينا اولادنا ، ماشين على اقدامهم ، او في صناديق مغلقة بالمسامير ؟

لا فرق عندنا ، نحن اللاجئين ، لا فرق .

وسيان علمنا ، ام لم نكن نعلم . فنحن دائما ، نتوقع : ان يدق على ابواب بيوتنا ، الموت . في كل يوم ، مرة . في كل ساعة ، مرة . في كل دقيقة وفي كل لحظة ، مرة . ان تأخر عنا ، نخاف . نخاف ان يكون آتيا ليحصد بالجملة . فما احلاه ان اتى ودق على الابواب ، متمهلا ، وقال : هاتوا يا لاجئون . نقول له ، ونحن مبسوطون : مرحبا. تفضل وانتق من تريد من الاولاد : من لم يمت منهم بقصف القنابل ، خطفه من بين ايدينا السيل . ومن لم يمت من البرد تحت الخيمة ، مات من الجوع والمرض والحرمان . ومن لم يمت بها جميعا حتى اليوم ، فانظر اليه ، ميتا بالذل وهو على قيد الحياة . فخذه واذهب به ، الى اخوته . يلتقون عندك جميعا ، في مخيم ينعمون فيه بالنوم العميق والراحة . فلا تستطيع قنابل الصهاينة ان تصل اليه . او تستطيع العواصف ان تقتلع من فوق رؤوسهم ، خيامه .

نعم . فنحن دائما ، نتوقع .

فلا يفاجئنا الموت ، ايها الضيوف الاعزاء ، باي جديد .

في ليلة عرس فهد ، كنا نعلم . نعم نعلم . فهذا كل ما كان يهمنا معرفته ، ولا شيء غيره : ان آخر ليلة من ليالي التعاليل السبع ، السابقة على العرس ، كان يحييها فهد ورفاقه ، في ربوع البصة الحبيبة ، وهم يعانقون ، زاحفين الى الجبل ، كل شبر من الارض ، هناك . وقد لبسوا ، في التلبيسة ، قبل ان يخرجوا من قاعدتهم ، ملابس القتال . فماذا غيرها ، يرتدي العرسان عندنا ، وهم ذاهبون الى زفة بصاوية .

فلا فرق عندنا ، يا ضيوف ، نحن اللاجئين ، هنا ، في المخيمات ، لا فرق .

ها هو عريسنا فهد ، قد عاد الينا ، على كل حال . بعد ان قام مع رفاقه ، بكل ما يقتضيه العرس ، من افراح واحتفالات ، من التعاليل الى التلبيسة الى موكب العرس . عاد والليلة عرسه . فافرحوا ، معنا، يا ضيوف ، ولا تزعلوا .

انما هكذا طبع فهد . وقد عرفتموه ، منذ ان كان صغيرا . فمن كان من بين اولاد المخيم بعناده ؟ لذلك كان لا بد له من ان يذهب الى ابي فاطمة ويستأذنه نيابة عن عروسه . قال ، لانه يرفض ان يتزوج على الطريقة القديمة اللاجئية . لكن الصهاينه اعترضوا طريق فهد ورفاقه، وهم ذاهبون الى ضيعتنا في جبل البصة ، ليحضر فهد من عند ابي فاطمة ، العلامة . فكيف يهرب فهد ورفاقه ويرجعون ؟ كيف ؟ وقد قطع فهد على نفسه وعدا بانه لا يتزوج فاطمة الا بعد ان يستأذن لها اباها ، نيابة عنها ، ويعود الى عمتها بالعلامة .

صاح فهد بالصهاينة : خسئتم . هذا وطننا . ونحن نعود اليه اليوم .

لكن الصهاينة اعترضوا طريقه . فكان لا بد لفهد من ان يشق طريقه بقوة السلاح ، ذهابا الى البصة ، وايابا منها الى قاعدته ، بعد ان قام مع رفاقه ، بما عهد اليهم به هناك ، في ضيعتنا التي جعلها الصهاينة مستعمرة لهم ، من مهمة .

كان لفهد يا ضيوف معنا ، موعد : انه يتزوج متى عاد من ضيعتنا بعد ان يستأذن ابا فاطمة .

فكيف لا يعود به رفاقه ، في الموعد ، كيف ؟ ولو سقط وهو يقاتل الصهاينة ويشق لرفاقه طريق العودة الى قاعدتهم .

ومن ناحيتنا : كيف لا نحتفل في ليلة عودته الينا ، بعرسه ، بعد ان اكتملت جميع اسباب العرس ، من اذن ، ومن علامة ؟

تزعل بعد ذلك ، فاطمة .

فماذا نظن رفيقاتها من صبايا البصة ، ان لم نحتفل في ليلة عودة عريسها الينا ، بعد ان استأذن اباها ، بعرسها ؟

انه احب غيرها ؟!

ولا يريد ان يتزوجها ؟!

تزعل بعد ذلك ، فاطمة .

لانها ، من فرط حبها له ، فكلما رأته ، فكأنها كانت اسيرة ، وقد تحررت تلك اللحظة ، من قيود الاسر .

ولانه من فرط حبه لها ، كما ترون يا ضيوف ، رفض ان يتزوجها بطريقة قديمة لاجئية . بين خيام الذل والتشرد ، في حفلة مخيمية .

لانه من فرط حبه لها ، رفض ان يعود اليها ، في ليلة عرسهما ، الا عن طريق البصة .

بذلك ، لا تزعل فاطمة :

بصاوية حرة ، من ارض ضيعتنا الحلوة . وفي عز افراح الضيعة، تتزوج اليوم من حبيبها ، بطريقة بصاوية . عربية الاصل ، فلسطينية ، جبلية .

— ٢٦ —

الليلة عرس بنتنا الحلوة ، فاطمة .

فانظروا اليها وهي تمشي قدام نعش عريسها ، محمولة على كتف عمها ابي فهد . وقد خرجت للتو من بيت اهلها ، في اعلى جبل البصة ، بعد ان قبلت يد امها ويد ابيها ، واستأذنتهما . ذاهبة الى حبيبها الفهد ، في ليلة عرسها . والجبل كله : طبل يدق . وفشك يئز . ونار تضيء الكون بالفرح والمسرة .

انظروا اليها وهي تتألق فريدة في حسنها التعيس الحلو العميق.

هل تشتهون ان تقفوا على الشاطىء في صباح يوم ممطر حزين ، وتنظروا الى البحر . ولكم في البحر مركب . وفي المركب مسافر . وفي قلب المسافر ، محبة . تساوي من اجلها ، ان تسافروا معه الى المجهول . عبر العواصف . في قلب المخاطر . وقد فاتكم معه السفر . في صباح يوم ممطر حزين . تلوحون له بالمناديل . فلا يرد ، ويظل يسافر .

هل تشتهون ان تحزنوا ، وقد فاتكم مع المحبوب السفر .

فانظروا الى البحر في عيني فاطمة ومركب فهد يسافر في اعماقه، الى شواطىء البصة . ولا تلوحوا له بالمناديل . بل استعدوا : غير العواصف ، في قلب المخاطر ، ان كنتم تحبون ، كما احب الفهد فاطمة، للسفر . انظروا الى بنتكم فاطمة . انظروا .

فهل تشتهون ان تصعدوا الى قمة جبل مطل على الارض كلها ، لتشاهدوا من هناك ، الزمن . وكيف انه بالطريقة اللاجئية ، لا يتغير . يظل عشرين سنة اخرى : مخيما للذل . واطفالا لا يعرفون الركض ، الا هاربين من غدر السيل . ورجالا يستجدون لهم اللقمة من معونات الاجانب . وصبايا يشتهين الزغرودة ، في العمر ، مرة . وعجائز ، يزوجن بناتهن لاولادهن ، وهم عظام بالية داخل قبورهم ، في الجبانة .

هل تشتهون ان تشاهدوا الزمن . وكيف انه بالطريقة الاخرى البصاوية ، يتغير .

بالحب :

ان يمسك ابو فاطمة ببارودته العثملية على ابواب الضيعة .

تمسك ام فاطمة بابنتها فوق منحدر الوادي . قال السيل : لترجع بها الى الضيعة .

بحب ارض الضيعة .

بالحب .

ان يعلم ابو الفهد ابنه الفهد : ان ارض الضيعة ، لا يبرحها ، من يريد ان يكون لزوجته في كل اصبع من اصابع يدها ، قوة عشرة رجال ، وهي تحمل اطفاله ،

يمسك الفهد ، من اعماق ذل المخيم ، بندقية ، ويزحف عائدا الى الضيعة .

بحب ارض الضيعة .

بالحب .

ان يكتبوا كتاب الفهد على بنت ضيعته فاطمة، فلا يتزوج بالطريقة المخيمية . بل يستأذن اباها بالطريقة البصاوية ، فاينما يقيم ابوها ، يذهب اليه ،

يعود فهد الى الضيعة : واقعا في العشق ، ولا بد ان يتزوج المحبوبة . فكيف يتزوجها ، دون ان يذهب ليستأذن اباها وهو مقيم في الضيعة ؟

بحب ارض الضيعة .

بالحب .

ان تنتظر فاطمة عريسها ، سنتين ، وهو يتعلم الطريق الى الضيعة ،

يعود اليها عريسها ، في ليلة عرسهما . لانه لم يحب بنتا غيرها ، كل حياته . فكيف لا يعود ؟

يعود اليها ، محملا برائحة ارض الضيعة .

بالحب .

فهل تشتهون ان تشاهدوا الزمن يا بصاويون ، وكيف انه بالطريقة البصاوية ، يتغير ؟

فانظروا الى شفتي فاطمة ، وهما لا تحكيان . بل تمسحان الشفاء والعذاب والغربة والذل والتشرد والحرمان ، واصفرار الزهر الذابل ، وكآبة الشمس الحزينة ، عن خد فهد . من عين فهد . من روح فهد . عن كل فهد . وهي تحنو عليه ، بقبلة .

هل تشتهون يا بصاويين العز ؟ قولوا : هـل تشتهون العـز ؟ والشبابيك مفتوحة من اعلى بيونكم . وبيونكم فـي اعلى قمم جبـل البصة . والسقوف تحتكم عامرة بالروج الخضر ، تسرح فيهـا الحملان البيض ، وادعة .

والكون عندكم ، عربي .

وراية أم فاطمة تخفق عالية ، فوق قبر ابـي فاطمة . فمهما تهب من حولها العواصف او تصب السيول ، فهي مـن يـد ام فاطمة ، لا تسقط .

والبواريد : لا عشر عشملية ، وفشكها مسترطب، بل الف الف بارودة، بالنار ، كلما توسدت اكفكم ، تنطق .

بالنار ، تتدفق لامعة ، من بين ايدي فتيان البصة ، فبعد ان طال الليل ، لتشق حجب الظلام .

لتظل شبابيككم ، عند الصبح ، مفتوحة علـى البحر ، والزهر ، تستقبلكم عندها ، حين عودتكم من كـروم الزيتون وبيارات البرتقال ، امهاتكم وزوجاتكم ، بالزغاريد الحلوة ، والاذرع الحانية .

هل تشتهون كل هذا العز ؟

فانظروا الى جبين فاطمة ، شامخا ، امام نعش عريسها فهد .

انظـروا .

وحجوا . هيا ، اليه .

زاحفين . صاعدين : لبيك يا جبل البصة .

انظروا الى فاطمة ، والنسوان حولها يزغردن . ويهتفن بهـا ان تزغـرد :

ـ زغردي يا فاطمة لعريسك فهد ، في ليلة عرسه . زغردي .

وللاطفال ، كيف اخذوا يهزجون :

ـ فاطمة تزغرد لفهد . فاطمة تزغرد لفهد .

انظروا الى فاطمة وهي تحنو على الاطفال الحلوين ، مـن فوق كتف عمها ابي فهد ، بابتسامة عذبة . فيهزج الاطفال وهم يصفقون :

ـ نحب فاطمة . بمحبة فهد ، فاطمة تزغرد . فاطمـة تزغـرد ، بمحبة فهد .

زغردي يا فاطمة .

نعم . زغردي .

فلا بد للبنت يا فاطمة ، لبنت اللاجئين ، من ان تزغرد . امـام نعش حبيبها . امام نعش زوجها . امام نعش اخيهـا . لا بـد للمـرأة عندنا ، ولو كانت عجوزا ، مشلولة اليد والفم واللسان ، ولـو كانت كسيحة ، من ان تنهض لتستقبل ابنها ، عندما يعود الى احضانها ، في نعشه ، بزغرودة . والا فكيف تفرح بناتنا ، وامهاتنا ، وزوجاتنا ، بنا ، اليوم ؟ وقد طال بهن الحزن كثيرا ، قبل ذلك كيف يا فاطمة ، كيف ؟

زغرودة واحدة لفهد . يا فاطمة .

من اجل فهد . زغردي . ولو مرة واحدة . يا فاطمة .

ـ ٢٧ ـ

لكن فاطمة ، كانت .. نعم ، محمولة على كتف ابي فهد . وحولها يمشي آلاف من اللاجئين واللاجئات . لكنها ، كانت الآن تلتقي بفهـد ، لوحدهما ، على انفراد . فكيف انها ، اذن ، تسمعهم ؟

كان قد تضاءل هدير الالوف من حولها ، فلم تعـد تسمع منـه ، شيئـا .

واتى فهد .

انفتح النعش امام عينيها ، وخرج منه ، وجه فهد ، واستوعب في لحظة ، بجبينه العريض ، وعينيه الحلوتين الواسعتين ، وجـوه الآلاف من حولها ، فلم تعد ترى سواه .

ـ مد يده ومسح على شعرها . وربت علـى خدهـا ، بحنان ، وابتسم .

قال لها : مالك يا فاطمة . لماذا لا تزغردين ؟

قالت له فاطمة :

ـ هل آن الاوان يا حبيبي ، لازغرد لك . وكما اتفقنا مـن زمان ، ان ازغرد ، في ليلة عرسنا هذه ، عندما تعود مـن البصة . بطريقتنا ، انا وانت . من اجل ان يرى اهلنا الاحباب ، كيف اننا نتزوج ؟

وفهد همس في اذنها ، وهو يمرغ خده على شعرها الاسود الفاحم المفروش على كتفيها :

ـ فلماذا ظللت اعلمك ، كيف تزغردين ؟ انا وانت وحدنا . ونحن نسرح في الحقول ، حول المخيم ، طيلة ايام اجازاتي السابقة ، خـلال سنتين ؟ لماذا ؟ واتفقنا على ان نتزوج ، بعد ان استأذن لـك اباك ، لنسعد اهلنا .. نعم .. كما يريدون . لكن ، لنفرح ، نحن ، انا وانت، بطريقتنا . لماذا ؟ نعم يا حبيبتي . لقد آن الاوان . نعـم . فهيـا . زغردي لهم ، كما علمتك ان تزغردي ، يا فاطمة ، هيا .

وفاطمة ، لما عرفت ان فهدا قد اذن لهـا ان تزغرد . فقـد آن الاوان ، ليفرحا معا . فانها مدت يدها الى رفاق فهـد ، وهم يمشون حول النعش .

يا سلام ! فكأن رفاق فهد كانوا ينتظرون منها تلك الاشارة .!

لان فاطمة ، ما ان سألتهم وهي تمد يدها اليهم :

ـ هل ارسل فهد لي معكم هدية ؟

حتى هتفوا :

ـ اليك ما ارسله فهد يا فاطمة . اليك يا عروس . من عريسك ، في ليلة عرسكما ، الهدية .

والقوا اليها باحدى البنادق التي كانوا يحملونها . وصاحوا :

ـ هذه بندقية فهد ، وقد ارسلها اليك ، هدية .

بينما كان الآلاف من حول النعش ، قد حبسوا انفاسهم ، دهشة .

وقد توقف الموكب كله ، دفعة واحدة .

تناولت فاطمة بندقية فهد ، بكلتا يديها ، وهتفت مـن فوق كتف ابي فهد ، بجمع اللاجئين :

ـ اليس انكم قد نصبتم له هناك ، في الساحة ، ثلاثـا وعشرين سنة من عمره ، بثلاث وعشرين لمبة كهرباء ؟ وقلتم : كأنه ايضا ، عيـد ميلاده ؟ صح . تركيب ابي الفهد ، وصح . فهو الذي كان قـد علمه ، انك تولد من جديد ، يوم تعود الى البصة . وقبلها تسقط كل السنين، بدون حساب . تحتفل يا اهلي بميلاد فهد ، اذن ، هذه الليلة . ففي هذا اليوم ، ولد . تحتفل وتطفيء له شموعه التي نصبها له ابوه : ثلاثا وعشرين لمبة كهرباء ، في الساحة . فانظروا .

واشارت فاطمة الى الشريط البعيد المعلق في الساحة ، وتتدلـى منه ثلاث وعشرون نقطة من الضوء .

وبهدوء . اسندت اخمص بندقية فهد الـى صدرها ، وسحبت مغلاقها الى الخلف ، وهيأتها للرمي ، كأحسن جندي مدرب . ووجهت فوهتها نحو الشريط المعلق في الساحة . يـا الله .! فوسط دهشة اللاجئين ، وخصوصا ضيوف اللاجئين ، وهم بعد جميعا ، لا يفهمـون ماذا تريد ان تفعل فاطمة ، هتفت فاطمة :

ـ ازغرد لكم يا اهلي ، فانظروا . لاول سنة من عمر فهد ، طلقة. وهو يتعلم المشي في ظل اشجار الزيتون في كروم الضيعة .

وضغطت فاطمة على زناد البندقية ، فانطلقت رصاصة .

واذا باول لمبة في الشريط ، هناك ، في الساحة ، تطق . باصابـة محكمة عجيبة . وتنطفيء . بينما يتحطم زجاجهـا ، بصوت مسموع ، ويهوي شظايا الى الارض . واذا بالنور في لمبة فلسطين الكبيرة المعلقة في رأس العمود الوسطاني فوق العلم ، يتوهج .

صاح اللاجئون ، من فرط دهشتهم :

ـ يا الله ! كأنه ابوها ، على باب الضيعة .
صاحوا : فمن علمها الرمي ، بهذا الاحكام ؟!
صاحوا : يا فاطمة . يا فاطمة .
وانفجرت ، عند ذلك ، من العيون ، دموع الرجال .
صاحوا وهم يبكون : يا فاطمة .
وكأنهم كانوا يهتفون :
ـ يا نور عيون البصاويين ، يا فاطمة . يا احلى امانيهم . يا زهرة في الجبل ، فواحة بالعز . يا منارا على الشاطىء للضائعين في لجة البحر .
صاحوا : يا فاطمة .
فقبل ان تنتهي صيحاتهم ، هتفت فاطمة :
ـ للسنة الثانية من عمر فهد ، طلقة . وهو يتعلم الكلام ، بالعربية . لا لاجئية ولا مخيمية . واطلقت .
فاذا باللمبة الثانية من بين صف اللمبات المعلقة في الشريط ، تتحطم وتنطفىء وتهوي .
يا سلام ! واذا بالنور ، دون ان ينتبه احد من اللاجئين ، يزداد توهجا في لمبة فلسطين الكبيرة .
صاح اللاجئون : يا فاطمة .
فقبل ان تنتهي صيحتهم ، هتفت فاطمة :
ـ للسنة الثالثة من عمر فهد ، طلقة . وهو ينزح نازلا من الجبل. تعلم المشي ، منتصب القامة ، في عز الضيعة ، والكلام ، فصيحا ، بالعربية . قالوا له : نعال ونعلم مشيا جديدا ، وانت بلوي رفيتك بذل وتنزح . ونعلم لغة اخرى ، لتحكي بها ، غريبة عن العربية ، فهي لاجئية . واطلقت .
فاذا باللمبة الثالثة في الشريط ، تنطفىء ، ويقفز نورها الى قلب لمبة فلسطين الكبيرة .
ـ للرابعة والخامسة والسادسة .
ـ للعاشرة .. والخامسة عشرة .. والعشرين .
هتفت فاطمة ، وهي تطلق ، فتصيب اللمبات بالتسلل ، بينما تزداد لمبة فلسطين توهجا ، كلما اصابت لمبة .
ـ للثالثة والعشرين .
هتفت فاطمة :
ـ للثالثة والعشرين ، آخر طلقة . في يوم ميلاد فهد . ومن ميلاد فهد ، يا بصاويون ، ابدأ بالرابعة والعشرين ، لاردها الى صدور الظالمين . فليسمعوا وليعدوا . كم من الرصاص اطلق عليهم .
عن كل شبر من الارض نزله فهد من الجبل لاجئا الى المخيم . عن كل ذرة تراب من كل شبر من اسفار النزوح ، طلقة .
عن كل شعرة من رأسه ، تلطخت بوحل التشرد من قرنة في الارض الى قرنة ، بدلا من ان تتهدل في خصلة من الحلاوة والسحر ، فوق جبينه ، طلقة .
عن كل لحظة من كل دقيقة من كل ساعة عاشها فهد ذليلا ، تحت الخيام ، طلقة .
عن كل دمعة سالت من عينه وهو يبكي على اجساد رفاقه الصغار كلما اختطفهم غدر السيل ، وعادوا بهم الى المخيم ميتين ، طلقة .
عن كل برعم ورد يبس في ربيع خديه .
عن كل شعاع من الشمس انطفأ في حزن عينيه .
عن كل ضحكة او بسمة مات على شفتيه .
عن كل همسة حب او حنان ظلت تختنق بين جنبيه .
عن كل امنية حلوة ، سرقها الحرمان ، من بين يديه .
عن كل منها ، جميعها .
من يد حبيبة فهد .
الى صدور المجرمين القتلة .
طلقة .

فهكذا زغردت فاطمة ، في ليلة عرسها ، لحبيبها فهد :
لفهد ازغرد في ليلة عرسه . في يوم ميلاده. لكن بطريقته ، ازغرد.
تسألني الصبايا ، من زمان :
ـ ماذا سيهديك فهد ، في ليلة عرسك ؟
فاقول :
ـ يهديني هدية . وقد ظل يعلمني كيف احبها واستعملها ، كلما عاد الى المخيم في الاجازة ، طيلة السنتين الاخيرتين .
فيسالنني : ماذا تكون اذن يا فاطمة ، هذه الهدية ؟
فاقول : في ليلة عرسي يهديني الهدية . فهل رأيتن الآن ، يا صبايا البصة ، كيف ارسل لي فهد الهدية . من هنا ، وانا احملها ، كنا سنبدأ طريقنا ، انا وهو ، في ليلة عرسنا ، الى البصة . ومعي دليل يعرف الطريق . ومعه من ضيعتنا علامة . لا يدخل العريس البصاوي على عروسه البصاوية ، الا في بيته في الضيعة ، على رأس الجبل . فمن اجل ذلك يا صبايا ، تكون من العريس الى عروسه ، في ليلة عرسهما ، الهدية . لفهد اعطيت قلبي . كتبنا الكتاب . لكن ، بطريقتنا ، نتزوج . بحبي لفهد وحبه لي ، فرحنا . لكن بطريقتنا ، قررنا ان نفرح .
لفهد ازغرد ، في ليلة عرسه . في يوم ميلاده . لكن بطريقته ، كما علمني ، ازغرد . لكن ، ببندقيته ، ازغرد .
لفهد ، ازغرد .
لفهد لفهد لفهد .
لعيونه . لجبينه . لجراحه . لعذابه . لشبابه . لامه . لابيه . لرفاقه . لاحبابه يا بصاويون ، يا اهلي من احبابه .
لفهد ، ازغرد . لكن بطريقته ، ازغرد . لكن ببندقية فهد ، زغرد فاطمة .
فاسمعوا يا عائدين الى البصة ، عن طريق الصعود الى الجبل ، كيف تزغرد لكم بنتكم فاطمة ، وهي فرحانة .
هدر اللاجئون كموج البحر ، في صوت واحد :
ـ زغردت اخيرا ، رغم عشرين سنة من الشقاء . بنتنا النعيسة.
والارض من حول المخيم ، رددت اصداء الهدير . كأنه وادي البصة ، والصوت ينزل اليه من قمة الجبل : ان نعم . نطقت اخيرا ، رغم عشرين عاما من الصمت يا لاجئون ، بنتكم الخرساء .
لكن احدا من اللاجئين . ولا من الضيوف . ولا من رفاق فهد . كان قد انتبه الى لمبة فلسطين الكبيرة ، التي كانت تزداد توهجا ، فوق الساحة ، كلما انطفأت سنة من عمر فهد . فعندما انطفأت لمبات فهد الثلاث والعشرون ، ووصلت اليها ، كل طاقة الكهرباء المخصصة لانارة المخيم ، اذ لم يكن احد من اللاجئين ، يستهلك منها اي ذرة من النور . يا سلام ! فانها توهجت . وتوهجت . بنور لم يشاهد مثله اللاجئون من قبل ، في هذا المخيم . بنور يشبه الآن ، بقوته وتألقه ، نور النهار . فكأن الشمس قد اخذت تسطع على المخيم ، مباشرة ، من فوق جبل البصة .

الليلة عرس ابننا فهد ، وبنتنا الحلوة فاطمة .
اصلنا من جبل البصة . على مسافة يوم واحد من المشيء عن عكا الشريفة ، لا اكثر .
طال الطريق الى البصة ، مقدار عشرين سنة من الزمان ، يا احباب .
لكن فهد ابى ، وقال :
ـ نعود الى البصة مشيا على الاقدام ، مسافة ساعات معدودة عن قاعدتنا ، لا اكثر .
شرفتمونا يا ضيوف . وبحضوركم اكتمل السرور .

لا . لا تؤاخذونا . فنحن نفرح مثلكم . مثل باقي البشر . عندما نزوج بناتنا لاولادنا . فلا تؤاخذونا ، ان كانت طريقتنا في الفرح ، تختلف .

نعم . يبدو الآن ان ابا فهد ، كان يعرف . عندما استدعوه الى مدينتكم المجاورة لمخيمنا . وتلقى وهو في مكتب الفدائيين ، هناك ، مخابرة .

ـ يبدو الآن ، انه وحده ، كان يعرف ، ماذا جرى للفهد ، بعد ان ذهب واستأذن .

لكن . اليس معه كل الحق ، فماذا كان يقدر ان يفعل ؟ وكتاب ابنه مكتوب على فاطمة بنت ضيعته منذ سنتين ، وفهد يؤجل العرس حتى يستأذن .

الحق معه .

فماذا كان يقدر ابو الفهد ان يفعل ؟ وجميع اسباب احياء حفلة العرس قد اكتملت ، من اذن والد العروس ، الى عودة العريس ومعه العلامة ، الى عودة رفاقه ومعهم لعروسه ، هدية . والافراح في حياة ابي فهد قليلة . وفرحته الوحيدة ، فهد . وان يعود الى الضيعة ، حاملا بدلا منه ، الى ابي فاطمة ، ذخيرة من الفشك ، غير مسترطبة . فها هو فهد قد تعلم الطريق ، وحمل الذخيرة الى ابي فهد . فطق هناك الفشك ، لاول مرة من عشرين سنة . ونهض ابو فاطمة ، من قبره ، وسأل :

ـ من يطق ، من جنبي ، على الفزاة ، الفشك ؟

والفهد قال له :

ـ هل تتذكر صاحبك القديم نمر البصاوي ، الذي نزل يومها ، ليعود بذخيرة الفشك ، ام انك نسيته ؟

وابو فاطمة قال :

ـ كيف انساه وهو صاحب العمر . وحر . ان وعد انجز ووفى بما وعد . وانا ما زلت انتظر ان يعود اليّ بذخيرة الفشك . فلا بد ، مهما طال الزمن ، لا بد له ان يعود . فما علاقتك انت به ، يا ولد ؟

قال الفهد :

ـ انا فهد . ابنه . ولما ولدت فاطمة ، كان عمري سنتين . فأتى بي ابي اليك ، واخذ فاطمة بين ذراعيه وقال : هذه عروس فهد . هكذا يحكي لي ابي . فهل انك تتذكرني ؟

فتأثر ابو فاطمة كثيرا ، وشم الفهد .

قال :

ـ اشم فيك رائحة الفشك وهو يطق يا ولد . وكذلك رائحة فاطمة . فكيف حال فاطمة ؟

والفهد قال له :

ـ فاطمة ، وكتبت عليها كتابي ، تقبل يديك ، وتسألك ان تأذن لها بالزواج . وابي نمر البصاوي ، يسلم عليك . ويقول لك ، هل انك يا ابا فاطمة ، تسامحه ؟ لانه لم يعد اليك بذخيرة الفشك طيلة هذه السنين . وقد ارسلها معي اليوم ، فهل انك تسامحه ؟ قال : لينام مرة واحدة واخيرة ، دون ان يسمع صوتك ، وانت تنادي عليه : يا نمر ، اين الفشك ؟ فهل انك يا ابا فاطمة تسامحه ؟

وابو فاطمة ابتسم .

قال لفهد :

ـ لا بد ان ام فاطمة ، فرحانة ، هذه الليلة . قلت لها بعد ان ولدت فاطمة : ابو الفهد يطلب فاطمة لفهد . فقالت : احلى ولد في الضيعة . قلت : ان كان شجاعا بمقدار حلاوته ، اعطيه فاطمة . فقل لام فاطمة : اني موافق . ولفاطمة : مبروك . ولابيك : اني كنت انتظر الفشك . فما دام انه قد ارسله لي مع ابنه ، فماذا جرى ؟ سوى كل الخير . فكيف لا اسامحه ؟! الانه تأخر ؟ لا . فهذا غير مهم . ما دام انه في النهاية ، لم ينس ان يرسل اليّ الفشك . لا نموت نحن البصاويين في عشرين سنة من الزمان . قد نغفو قليلا ، فيظن الناس اننا ميتون . لكن متى توفرت الذخيرة يا ولد . وكانت البواريد طيبة . آه . فلا بد ان ينهض حتى الذين ماتوا منا . لنطخ اعداءنا بالفشك . الا تعرف المثل البدوي بين العرب ، يا فهد .

قال له الفهد : ما المثل ؟ قال ابو فاطمة :

ـ اخذ البدوي بثأر ابيه بعد اربعين سنة . فقال له العربي : استعجلت .

— ٣٠ —

اهلا وسهلا بكم يا ضيوفنا الاكارم .

لا تؤاخذوا ابا الفهد بما فعل . فاذا انه لم يحتفل بعرس فهد، في ليلة عودة فهد الى جبانة المخيم ، فمتى يحيي ، كل حياته الباقية ، له ، اي حفلة ؟

الحق معه . وهو رجل عجوز . عجوز . بالعمر : خمسون سنة . نعم . لكن بالعذاب ، عجوز ، عمره الف سنة .

اهلا وسهلا بكم .

فبحضوركم اكتملت افراحنا ، وتم السرور .

شيلوا معنا نعش فهد . وامشوا بنا .

ها هنا . في منتصف الساحة . فارفعوا النعش ، فوق هذا التخت .

وتعالي يا فاطمة الى جانب فهد . ليزفك المطرب الى عريسك .

وانت يا مطرب الافراح ، غن لنا ، بينما النسوان تزغرد ، والعريس مقبل على عروسه ، والزفة قد ابتدأت .

غن لنا : ان الحسن قد التقى بالحسن .

فما احلاك ، كلما تسأل ، وكفك ملتصق بخدك ، بالآه : اي حسن احسن ؟

غن لنا : ان يد ام فاطمة وهي ممسكة برايتنا ، قد عبرت ظلام الوادي الى قمة الجبل .

آه . فمن يستطيع ان يسقط رايتنا بعد اليوم ، من هناك ؟

غن لنا : اننا ظللنا نمشي في الارض ، عشرين سنة ، ونحفر ، حتى وجدنا العلامة : بارودة يموت جنبها المقاتل ، واغلى من كل مباهج الدنيا وراءه ، ان لا ينفد من صرته الفشك ، قبل ان يموت .

آه : فمن يستطيع بعد اليوم ان يحجب عن اعيننا الطريق ، وقد رفع فهد على بدايته ، لنا ، علامة ؟

يا مطرب الافراح .

غن لنا : وقد حان وقت ان تمسك اليد باليد .

غن لنا : ان فاطمة قد امسكت بالبندقيه ، هدية في ليلة عرسها ، من عند حبيبها فهد .

آه . فمن يستطيع بعد اليوم ان يفك اصابعها ، عن البندقية ؟

غـن .

واطربنـا .

ولا تتوقف .

فهكذا نحن اليوم ، نزوج بناتنا لاولادنا في ليالي اعراسهم .

نعم ، هكذا .

فاطربنا . ولا تتوقف .

يا مطرب الافراح ، يا طيب .

ليست جنازة ما ترى .

لا .

وانما هو عرس فلسطيني .

حلب — اديب نحوي